المؤلفة الحائزة
على جائزة «نوبل
للآداب 2009»

إسقاطات

هيرتا موللر







ترجمة: أكاد محمد حسن

هيرتا موللر

إسقاطات

ترجمة: أكاد محمد حسن

مراجعة: د. مصطفى السليمان



هيرتا موللر

إسقاطات



ترجمة: أكاد محمد حسن

مراجعة: د. مصطفى السليمان



الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

PT2673.U292 N5412 2011
Müller, Herta
[Niederungen]
إسقاطات / تأليف هيرتا مولر؛ ترجمة أكاد محمد حسن .- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.
ص 168 : 12.5×20.5 سم.
ترجمة كتاب: Niederungen
تدمك: 978-9948-01-946-6
1 - القصص الألمانية – الترجمة إلى العربية.
أ-حسن، أكاد محمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Herta Müller
Niederungen

First published by Rotbuch Verlag 1984



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

المحتويات

كلمة التأبين

راح الأقارب في المحطة يسيرون بجانب القطار ذي الدخان المتصاعِد محركين مع كل خطوة أذرعَهم المرفوعة ملوحين بها.

وكان رجل شاب يقف خلف نافذة القطار قد وصل الزجاج إلى أسفل ذراعيه حاملاً أمام صدره باقة من الزهور البيضاء التالفة، وكان هامد الوجه.

حملت امرأة شابة طفلاً بليداً إلى خارج المحطة، وكان لها حدبة في ظهرها.

انطلق القطار إلى الحرب.

أغلقتُ التلفاز.

كان أبي راقداً في تابوت وسط الغرفة، وعلى الجدران صور لم يعدِ الجدار يُرى من كثرتها.

في إحدى الصور بلغ طول أبي نصف طول الكرسي الذي وقف متَمسكا به.

وكان يرتدي ثوباً وينتصب على ساقين مقوستين ملأتهما طيات الشحم، وله رأس قليلُ الشعر على شاكلة الإجاص.

وفي صورة أخرى كان أبي عريساً ولم يبدُ من صدره سوى النصف. أما النصف الآخر فكان باقة من الزهور البيضاء التالفة حملتها أمي في يدها. وكان رأساهما متقاربين حتى تلامست شحمتا أذنيهما.

وفي صورة أخرى بدا أبي واقفاً بانتصاب كالشمعة أمام سياج والثلج تحت حذاءيه العاليين. كان الثلج ناصع البياض فبدا أبي واقفاً في الفراغ، وكانت يده مرفوعة إلى رأسه للتحية، وعلى قَبّة سترته شارات.

وفي صورة معلقة بجانب تلك،كان أبي يحمل معزقة على كتفه وقد انتصبت خلفه نبتة ذُرة ارتقت في السماء، وعلى رأسه قبعة ألقت عليه ظلاً وارفاً حاجبةً وجهه.

وفي الصورة التالية بدا أبي جالساً خلف مقود مركبة شحن حُمّلت بالبقر. فقد دأب أبي على قيادة الأبقار كل أسبوع إلى المسلخة في المدينة. وكان وجهه نحيلاً حاد التراسيم.

في جميع الصور لاح أبي وقد تجمد في وسط إيماءة. في جميع الصور بدا أبي وكأنه لم يعد يدري كيف يتصرف. لكن أبي كان يعرف دائماً كيف يتصرف. لذلك كانت جميع هذه الصور زائفة. وبسبب الصور الزائفة الكثيرة، وبسبب وجوهه الزائفة كلّها كان الجو في الغرفة قد برد. وأردت النهوض عن الكرسي إلا أن ثوبي كان متجمّدا على الخشب. كان الثوب أسودَ شفافاً يصدر صريراً إذا ما أتيت بحركة. ونهضت ولمست وجه أبي فوجدته أشدَّ برودة من الحاجيات في الغرفة. وفي الخارج كان الجو صيفاً والذباب يساقط يرقاته أثناء الطيران. كانت القرية ممتدة بمحاذاة الطريق الرملية العريضة، وكانت تلك الطريق حارة سمراء تعمي الأبصار ببريقها.

كانت المقبرة مُحصِبة وقد علتِ القبورَ أحجارٌ كبيرة.

وعندما نظرت إلى الأرض دوني لاحظت أن نعلَي حذائي قد قُلبا. كنتُ مشيت طيلة هذا الوقت على رباطَي حذائي أجرُّهما خلفي طويلين ثخينين متشابكي الأطراف.

رفع رجلان قصيران التابوتَ وأخرجاه من المركبة التي نُقل فيها الجثمان ليودعاه في القبر مستعينين بحبلين خشنين، وجعل التابوت يتأرجح، وسواعدهما وحبالهما تزداد طولاً. وكان التابوت رغم الجفاف ينضح ماءً.

قال أحد الرجلين الثملين: يدا أبيك ملطختان بالكثير من الدماء.

قلتُ: لقد كان في الحرب، وحصل على وسام شرف لقتله خمسةً وعشرين شخصاً، وقد جلب معه أوسمةً كثيرة.

قال الرجل: لقد اغتصب امرأة في حقل لفت، مع أربعة جنود آخرين.

قال الرجل: كان الخريف في آخره وأوراق اللفت مسودة متلاصقة من الصقيع.

عندها وضع الرجل حجراً ثخينا على التابوت.

تابع الرجل الثمل الآخر الكلام:

ذهبنا احتفالاً بحلول العام الجديد إلى دار الأوبرا في مدينة ألمانية صغيرة. وغنت المغنية بحدّة. ثم غادرنا القاعة واحداً تلو الآخر. أما أبوكِ فبقي حتى النهاية.

شرب الرجل الصغير شنبصاً[1] فنزل مقرقراً في معدته ليردف قائلاً: في معدتي شنبص بقدر ما في القبور من مياه جوفية.

عندها وضع الرجل حجراً ثخيناً على التابوت.

كان خطيب التأبين يقف بجانب صليب من المرمر فأقبل علي وكلتا يديه مدفونتان في جيبي سترته.

كان لديه وردة ناعمة بحجم الكف مثبتة بالعروة. فلما وقف بحذائي، أخرج إحدى يديه من جيب سترته، وإذا قبضته مغلقة يريد مدَّ إصبع منها فلا يستطيع. وانتفخت عيناه من الألم، وشرع يبكي بكاءً خافتاً.

وقال: مع أبناء البلد لا يمكن التفاهم في الحرب. إنهم لا يتقبلون الأوامر.

عندها وضع الخطيب حجراً ثخينا على التابوت.

وفي هذه اللحظة أتى رجل سمين ووقف إزائي وكان له رأس كالخرطوم بلا وجه.

فقال لي: ابتزني أبوك وأنا سكران، وسرق مالي.

وجلس الرجل على حجر.

ثم أقبلت عليّ امرأة ذابلةٌ كثيرة التجاعيد فبصقت على الأرض قائلة لي: أف.

كان جمعُ المشيعين واقفاً عند النهاية الأخرى من القبر. نظرتُ دوني فذهلتُ لأن أعلى صدري كان ظاهراً للعيان ورحت ارتعش

(1) مشروبات روحية تعد بالتقطير، نسبة الكحول فيها عالية.

برداً.

سدد الكل عيونهم نحوي وبآبئهم تخز تحت جفونهم وخزا. وكان الرجال يحملون بنادق على مناكبهم، ومسبحات النسوة ترن في أيديهن.

وفردَ الخطيبُ أوراق وردتِه ليقتلع منها ورقةً قانيةَ الحمرة كالدم فأكلها.

وأشار لي بيده، فعرفت أنَّ عليّ أن ألقيَ كلمة، وجعلَ الكل يحدقون بي.

لم تخطر ببالي كلمة واحدة. ووثبت العيون عبر حلقي إلى رأسي. ورفعتُ يدي إلى فمي غارزةً أسناني في أصابعي. وبدت على ظهر يدي آثار أسناني. كانت أسناني حارة. وأخذ الدم يجري من شدقي على كتفي.

واقتلعتِ الريح كماً من أكمام ثوبي، فجعل يتطاير في الهواء في سكينة أسود اللون.

وأسندَ رجل عكازته على حجر ثخين، ثم لقَّم البندقية وأطلق النار على الكم فأسقطه. وبينا هو يهبط أمام وجهي إذ به قد تخضب دماً، وصفّق جمع المشيعين تقديراً.

كانت ذراعي عارية وشعرتُ بها تتحجر بفعل الهواء.

وأوعزَ الخطيب فسكن التصفيق.

وقال: إننا فخورون بجماعتنا. مثابرتُنا تقينا الهاوية. لن ندعَ أحداً يشتمنا. لن ندع أحداً يلطّخ سمعتنا. باسم جماعتنا الألمانية

حكمنا عليكِ بالموت.

وسدد الكل بنادقهم نحوي، ثم دوّى دويٌّ في رأسي وشلّني.

وجعلتُ أهوي من دون أن أبلغ الأرض، وظللت راقدة بالعرض من فوق رؤوسهم في الهواء. ثم وكزتُ الأبواب بهدوء.

لقد أخلت أمي جميع الغرف. في الغرفة التي سجّي فيها الجثمان قامت الآن طاولة مديدة، وكانت طاولةٌ للذبح رُكنَ عليها صحنٌ أبيض فارغ ومزهرية فيها باقة من الزهور البيضاء التالفة.

وكسا أمي ثوبٌ أسودُ شفافٌ وحملت في يدها سكيناً كبيرة. وأخذتْ تمشي إزاء المرآة قاصة ضفيرتها الثخينة الشيباء بالسكين الكبيرة لتحملها بكلتا يديها إلى الطاولة فتضعها جاعلة أحدَ طرفيها في الصحن.

قالت: سوف أسير كل حياتي ملتحفة السواد.

وأشعلتِ النار في أحد طرفي الضفيرة التي استغرقت طول الطاولة، فاشتعلت الضفيرة كالفتيل وراحت النار تلتهمها.

وقالت: في روسيا قصّروا لي شعري. لقد كانت هذه أهون عقوبة. كنتُ أترنح جوعاً، فتسللت ليلاً إلى حقل لفت. وكان عند الحارس بندقية لو رآني حينها لقتلني. لم يكن في الحقل أي حفيف. وكان الخريف في آخره وأوراق اللفت مسودة متلاصقة من الصقيع.

لم أعد أرى أمي، ولم تزل الضفيرة تحترق، وعجّت الغرفة بالدخان.

ثم قالت أمي: لقد قتلوكِ.

لم نعد نرى بعضنا لكثافة الدخان في الغرفة. وسمعتُ وقع خطاها قربي، فأخذت أتحسس بذراعين ممدودتين باحثة عنها. وفجأة تخللتْ يدُها الهزيلة شعري، وهزّت رأسي فأطلقتُ صرخة قوية.

شققتُ عيني فزعة وإذ بالغرفة تدور. كنت مطروحة في كرة من الزهور البيضاء التالفة حبيسة فيها.

عندها راودني شعور بأن السكنية تسقط مستوية بالأرض.

ورن المنبه فإذا هو صباح السبت والساعة الخامسة والنصف.

الحمام الصوابي[2]

إنه مساء السبت، وجوف موقد الحمام متوهج، والشَّراق مغلق بإحكام. في الأسبوع الماضي أُصيب آرني البالغ من العمر عامين بالزكام جراء الهواء البارد. الأم تفرك ظهر آرني الصغير بسروال بال وهو يثور ويمور بفرائصه. وترفع الأم آرني من حوض الاستحمام. ويقول الجدُّ: يا للطفل المسكين. وتقول الجدة: أطفال صغار كهؤلاء لا يُغسلون. دخلت الأم حوض الاستحمام، والماء ما زال ساخناً، ورغوة الصابون تطفو عليه. وتفرك الأم «الدعابيل» الرمادية عن رقبتها فتطفو «دعابيلها» على سطح الماء في الحوض ذي الحافة الصفراء. ثم تخرج الأمّ من الحوض منادية على الأب: ما زال الماء ساخناً. فيدخل الأب حوض الاستحمام، والماء دافئ، ورغوة الصابون تطفو عليه. ويفرك الأب «الدعابيل» الرمادية عن صدره فتطفو «دعابيل» الأب مع «دعابيل» الأم على سطح الماء وللحوض حافة بنيّة. ثم يخرج الأب من الحوض منادياً على الجدة: ما زال الماء ساخناً. فتدخل الجدة حوض الاستحمام، والماء فاتر، ورغوة الصابون تطفو عليه. وتفرك الجدة «الدعابيل» الرمادية عن كتفيها فتطفو «دعابيل» الجدة مع «دعابيل» الأم والأب على سطح الماء وللحوض حافة سوداء. ثم تخرج الجدة من الحوض منادية على الجد: مازال الماء ساخنا. فيدخل الجد الحوض، والماء بارد كالثلج،

(2) نسبة إلى صوابيا وهي منطقة في جنوب ألمانيا الغربي.

ورغوة الصابون تطفو عليه. ويفرك الجد «الدعابيل» الرمادية عن مرفقيه فتطفو «دعابيل» الجد مع «دعابيل» الأم والأب والجدة على سطح الماء. وتفتح الجدة باب الحمام ناظرة في حوض الاستحمام. فلا ترى الجدة الجد، وماء الاستحمام الأسود ينضح من فوق حافة الحوض السوداء. وتفكر الجدة: لا بد أنّ الجدَّ في حوض الاستحمام. وتغلق الجدة باب الحمام وراءها. ويدَع الجد ماء الاستحمام ينساب خارجاً من الحوض. وتدور دعابيل الأم والأب والجدة والجد في دوامة فوق الصرّافة.

منتعشةً بعد الحمام تجلس العائلة الصوابية أمام شاشة التلفاز. ومنتعشة بعد الحمام ترقب العائلة الصوابية فيلم مساء السبت.

عائلتي

أمي أنثى متلثمة.

وجدتي عمياء، إحدى عينيها مصابة بالماء الأبيض والأخرى بالأزرق.

وجدي مصاب بفتق في الصّفن.

لأبي طفل آخر من امرأة أخرى. ولست أعرف المرأة الأخرى أو الطفل الآخر. والطفل الآخر يكبرني عمراً، ويقول الناس إنني لذلك من رجل آخر.

يجهز أبي الهدايا للطفل الآخر قبيل عيد الميلاد قائلاً لأمي إنّ الطفلَ الآخرَ من رجل آخر.

ويجلب لي ساعي البريد دائماً مئة ليو[3] لعيد رأس السنة في ظرف قائلاً: هذه من رجل عيد الميلاد. لكنّ أمي تقول إنني لست من رجل آخر.

ويقول الناس إن جدتي تزوّجت جدي من أجل حقله، وإنها كانت تحبّ رجلاً آخر، وإنه كان خيراً لها لو تزوجت الرجل الآخر، لأن قرابتها بجدي وثيقة إلى حد جعل زواجها زواج قربى صرف.

ويقول غيرهم من الناس إن أمي من رجل آخر، وإن أخاها من رجل آخر، لكن ليس من الرجل الآخر نفسه، وإنما من غيره.

لذلك فإنّ جدَّ طفلٍ آخر هو جدي. ويقول الناس: إن جدّي هو

(3) اسم عملة في رومانيا.

جدُّ طفل آخر، لكنْ ليس الطفلَ الآخرَ نفسَه، وإنما غيره، وإن أم جدتي توفيت مبكراً جداً على إثر زكام هيّن، إلا أنّه كان أمراً آخر سوى الموت الطبيعي، أي أنه كان انتحاراً.

ويقول غيرهم من الناس إنّه كان أمراً آخر سوى المرض وأمراً آخر سوى الانتحار، أي أنه كان قتلاً.

وتزوج والد جدي سريعاً بعد موتها بامرأة أخرى، وكان لها طفلٌ من رجل آخر لم تكن متزوجة منه، غير أنّها كانت في الوقت نفسه متزوجة كذلك، وأنجبت بعد هذا الزواج الآخر طفلاً من والد جدي يقول الناس عنه إنه كذلك من رجل آخرَ وليس من والد جدي.

وكان والد جدي يرتاد من حين إلى آخر كلَّ سبتٍ مدينةً صغيرةً كانت منتجعاً صحياً.

ويقول الناس إنّه كان على علاقة بامرأة أخرى في هذه المدينة الصغيرة.

بل لقد شوهد علناً مع طفل آخر بيده، بل وكان يتكلم معه لغة أخرى.

ولم يشاهده أحد أبداً مع هذه المرأة الأخرى، لكنّها بحسب ما يقول الناس ما كانت لتكونَ إلا عاهرةً في أحد الحمامات الصحية، لأن والد جدي لم يكن يظهر علناً معها إطلاقاً.

ويقول الناس إنّ على الناس أن تحتقر رجلاً له خارج القرية زوجة أخرى وطفلٌ آخر، وإن هذا ليس خيراً من زواج القربى

على الإطلاق، بل إنه شر من زواج القربى الصرف، بل إنه العار الصرف.

إسقاطات

الأزهار الأرجوانية بجانب الأسيجة.. العشب اللولبيّ بثمره الأخضر بين أسنان الأطفال اللبنية.

الجدّ الذي قال: العشب اللولبيّ يجعل الناس أغبياءَ ولا يجوز أكله، ثم إنَّكِ لا تريدينَ أنْ تصبحي غبية.

والخنفساء التي دبت في أذني، فصبّ جدي الإسبيرتو فيها كي لا تدخل إلى رأسي، فأجهشتُ بالبكاء وانطلق أزيزٌ من رأسي الذي توهّج حرارة. وجعل الفناءُ كلّه يدور، وجدي واقف وسطه باسق القامة دائراً معه.

قال جدي: لا مفرَّ من ذلك وإلا دبّت الخنفساء في رأسكِ وصرتِ غبية. ولكنّكِ طبعاً لا تريدين أن تصبحي غبية. أزهار الأكاسيا في طرقات القرية.. القرية المطمورة بالثلج ذات جماعات النحل في الوادي. كنت آكل أزهار الأكاسيا التي كان لها من الداخل خرطوم حلو المذاق، فألوكه وأبقيه في فمي طويلاً، ثم لا أكاد أبتلعه حتى تكون الزهرة التالية بين شفتي. كان في القرية عدد لا يحصى من هذه الأزهار لا يمكن أكلها جميعاً، والأشجار العالية الكثيرة تزهر كلَّ عام.

قال جدي: أزهار الأكاسيا لا تُؤكل، فالذباب الأسودُ الصغير يقبع فيها، وإذا دبَّ في حلقكِ فستصبحين بكماء، ولكنّكِ طبعاً لا تريدين أن تصبحي بكماء.

الدرب الطويل ذو الكرمة البرية.. حبات العنب الحبري المسفوعة بأشعة الشمس تنضج تحت قشرها متناهي الرقة. وأُعدّ من الرمل قالب حلوى، وأحكّ السقائف ببعضها مستخرجة منها فلفلاً أحمر، فينكشط جلدي عند المعصمين ويلتهب حتى العظم.

دمى من الذرة.. وجدائل ضُفرت من اللفائف.. ولشعرِ الذرة ملمس رطب خشن. ونلعب دور الأم والأب في الأهراء مستلقين على القش بجانب بعضنا البعض. وننزع أحياناً جواربنا فيخزنا القشّ في أقدامنا ونعود فنرتديها خفية، ثم يبقى بعض القش على جلدنا أثناء المسير خادشاً أقدامنا.

وكل يوم ننجب أطفالاً.. أطفالاً من قوالح الذرة في قنّ الدجاج، أطفالاً من الدمى على رفّ الدجاج إذا هبّت الريح من خلال ألواح الخشب رفرفت ثيابهم.

تُدَسّ صغار الهرة في ثياب الدمى ثم تُربط بالسرير الهزاز وتُهز كي تنام. وأغني لها أغاني النوم هازة إياها حتى يصيبها الدوار. ويقف وبرها تحت الثياب. ثم لا تلبث أن تنتفخ عيونها وتذبل. وعندها يسيل اللعاب والقيء الشبيه بالجبن من أفواهها.

فيقصّ جدي الرباط ويدعها تنطلق، فترنح تارة ليعود بعدها وبرها منساباً، إلا أنها تواصل السير في الفراغ من دون أن تطأ الأرض أرجلها، من دون أن تحيا، ممعنة النظر في الصيف.

تحلق الفراشات عالياً من عرائش الكرمة راقصة فوق الفناء.

ونصطاد فراشات الكرنب البيضاء ذات العروق الهشة في

أجنحتها مترقبين صيحاتها حين نغزها بطرف الإبرة، بيد أنه لا عظام في جوفها، فهي خفيفة لا تقدر إلا على الطيران، وهذا لا يكفي عندما يملأ الصيف الدنيا.

وترفرف على الإبرة حتى تستحيل جثة.

في اللهجة الصوابية تُسمّى جثة الحيوان (لودر). والفراشة لا يمكن أن تُسمّى بذلك، فهي تتحلل من دون أن تُنتن.

في طست الغسيل ذباب، وفي وعاء الحليب الرائب طنين ضال غارق كطنين المراوح. ذباب في طست الغسيل على سطح الماء الرمادي المزبد، وعيون كبيرة، وإبر مسلولة تخز في الماء، وأرجل صغيرة ثائرة متناهية الرقة.

قريباً ستنتفض لآخر مرة وتبقى على سطح الماء ليزيدها الموت خفة على خفة.

وتعلق تحت أظافري قطرتا دم من كل فراشة. ويهوي رأس الذبابة المقلوع من يدي إلى الأرض كبذور الأعشاب الضارة.

تركَنا جدي نلعب.

وقال: طيور السنونو فقط يجب أن تُترك لتعيش، فهي حيوانات مفيدة. وعبارة الحشرات الضارة لفراشات الكرنب البيضاء، و(لودر) للكلاب الميتة الكثيرة.

تدب اليساريع، وهي في الواقع فراشات، خارجة من الشرانق.. الشرانق أكياس قطن معتمة ملتصقة بسنّادات عرائش الكروم.

ومن أين أتت أول فراشة يا جدي؟ ويجيب: اتركي هيا الأسئلة

الغبية، ما من أحد يعرف ذلك، واذهبي هيا العبي.

دمى النوم في ثياب مقواة نظيفة على أسرّة غرف النوم المهجورة.

منذ ليلة عرس أمي لم يتنفس أحد في هذه الأسرة.

قالت أمي: وكنا حينها متعبَين حتى غطّ أبوك في النوم من فوره بعد أن تقيأ فوق المرحاض. وفي تلك الليلة لم يلمسني.

وكهكهتْ ثم سكتت.

كان شهر أيار ولدينا كرز في تلك السنة، فقد جاء الربيع مبكراً جداً. وذهبنا بمفردنا لنقطف الكرز، أنا ووالدك. وقد تشاجرنا حينئذ أثناء قطاف الكرز، ولم يحدّث أحدنا الآخر بكلمة حتى في طريق عودتنا. وفي بستان الكرمة ذاكَ الكبير الخالي من البشر لم يلمسني والدك كذلك، بل وقف بحذائي كسند يبصق نوى الكرز الرطب اللزج دونما انقطاع، وقد عرفتُ وقتها أنه سيشبعني ضربا في حياتي.

عندما وصلنا الدار كانت النسوة في القرية قد ملأن سلالاً كاملة كعكاً، والرجال ذبحوا عجلاً مليحاً. وكانت الأظلاف ملقاة على الفضلات، وقد رأيتها لما دخلتُ الفناء من البوابة.

وصعدتُ إلى السطح كي لا يراني أحد وأنا أبكي، كي لا يفطن أحد إلى كوني عروساً تعيسة. وأردت عندئذ أن أقول إني لست راغبة في الزواج، لكني رأيت العجل المذبوح، ولو فعلت لقتلني جدي.

وتَهزّ سعلة رأسَ أمي فتنثر اللعاب من فمها، ويتجعد عنقها أثناء

ذلك تجعداً. وهو عنق قصيرٌ ثخينٌ لا بدَّ أنّه كان ذات مرة جميلاً، ذات مرة قبل أن أوجد.

مذ وجدت وثديا أمي متهدلان، مذ وجدت ولأمي ساقان عليلتان، مذ وجدت ولأمي كرش، مذ وجدت وأمي مصابة بالبواسير وتجهد نفسها آنة في المرحاض.

مذ وجدت تتحدث أمي عن امتناني وأنا طفلة ذارفةً الدموع، حاكّة بأظافر يدها أظافر اليد الأخرى، وأصابعها متشققة متخشبة.

فقط أثناء عد النقود تصبح ملساء رشيقة كالعناكب حين تنسج خيطها.

وتحفظ أمي النقود في غرفة النوم في قلب الموقد المبلط. ولا ينفك أبي يطلب نقوداً كلما أراد أن يشتري شيئاً. وهو يريد كل يوم شراء شيء ويطلب كل يوم نقوداً لأن كل شيء يكلف نقوداً. وتسأله أمي كل مساء ماذا صنع بالنقود، ماذا صنع ثانية بهذه الوفرة من النقود.

ولا ترفع أمي الأبجور السحاب عندما تذهب لإحضار النقود، وتشغّل من القاطع ضوء الغرفة في وضح النهار، فتشعّ الثريا بأذرعها الخمسة من مصباح باهت وحيد، وأذرعها الأربعة الأخرى عمياء.

وترفع أمي صوتها بالكلام أثناء عد النقود كي ما تحس بالأوراق النقدية أكثر بيديها، وعينها ماضية في عد الأوراق من فئة المئة ليو، لاحسة بين الفينة والأخرى رؤوس أناملها.

يداها متشققتان، وهما في الصيف خضراوان كالنباتات التي

تتعامل معها.

في الربيع تعود أمي مساء بعد اقتلاع الشوك جالبةً لي حُمَّاضا في حقيبتها، وفي الصيف زهرةَ دوار شمس هائلة.

فآخذ موضعي في الفناء الخلفي وآكل اللبَّ مع الدجاج مفكرةً أثناء ذلك في أسطورةٍ تُطعِم فيها فتاةٌ حيواناتها دوماً قبل أن تأكل هي. وأصبحت الفتاة فيما بعد أميرة، وكانت جميع الحيوانات تحبّها وتساعدها. وفي يوم من الأيام اتخذها ابنُ ملكٍ أشقرُ وسيمٌ زوجة له فعاشا كأسعد زوجين في طول البلاد وعرضها.

التقطت الدجاجات اللبَّ كلّه وراحت تنظرُ مشرئبّة الأعناق نحو الشمس، وزهرة دوّار الشمس خالية، فمزّقْتُها وقد كان لها جمّار أبيض لَدِنٌ يحرق اليدين.

لو دخلت نحلة في فم أحد ما لمات. ستلسعه في حنكه وسيتورم هذا الحنك منتفخاً حتى يخنق صاحبه، هكذا قال جدي.

كنت أفكر أثناء قطف الزهور بلا انقطاع بأنه لا يجوز أن أفتح فمي. غير أني رغبتُ أحياناً في الغناء، فصككتُ أسناني دافعة بالأغنية لتخرج دندنةٌ من بين شفتي، ونظرتُ حولي لأرى إن كان ثمة نحلةٌ مقبلة علي بسبب الدندنة بالذات. لكنّ نحلة لم تَلُحْ في طول السهل وعرضه.

وقد أردت لو أتت واحدةٌ فأواصل الدندنة وأريها أن لا سبيل لها للدخول في فمي.

ضفيرتان جامدتان نافرتان عن الجانبين فيهما شريطتان

معقودتان.

ولفائف نُزعت حتى المنابت بيضاءُ ذات عروق صلبة ضاربة إلى الحمرة تستحيل قانية الحمرة في الأطراف لتنمو بارزة منها ثم تنساب مختفية.

وتُمزّق اللفائف تمزيقاً تام الدقة حتى تبدو كالشعر. دمية الذرة.. دميتي الجميلة، طفلتي المؤدبة الصامتة عديمة الرقبة، عديمة الذراعين، عديمة الساقين، عديمة اليدين، عديمة الوجه.

وأنتزع حبتي ذرة من القولحة، فتنظر القولحة الخشنة من الثقبين كأنهما عينان شاردتان. وأنتزع ثلاث حبات إزاء بعضها وثلاثاً تحت بعضها متأملة في الفم الساكن والأنف المنقور.

دمية متحجرة الوجه قاسيته. حين تسقط على الأرض وحين تَيْبس يتساقط المزيد من الحبّ من جسدها ويصير لها ثقبٌ في البطن أو ثلاث أعين أو ندبٌ كبيرٌ على الأنف أو الخد، أو يصير لها شفتان مشققتان.

سوق الأعشاب دقيقة حتى الشفافية، فإذا نظر أحدهم من خلالها رأى هشاشة الصيف.

ويرى الناظر من الحقول القرية كأنها قطيع من الدور يرعى بين رواب لا يميّز نباتها إلا الألوان. ويتراءى له كلُّ شيء قريباً، فإذا سار نحوه لم يبلغه. لم أفهم هذه المسافة أبداً. كنت دائماً خلف الطرقات وكل شيء يمضي أمامي وليس لي سوى الغبار في وجهي ولا نهاية في الأفق.

وعند مخرج القرية يقابل العابر الغربان التي تنقر في الفراغ بين هنيهة وأخرى.

وعلى مسافة أبعد في الوادي تنتصب الورود البرية تعلوها عرانيس ذرة رمادية من درب الحقل، وقد سفعت الشمس رؤوسها الحمراء. وتظل أشجار البرقوق البري إزاءها زرقاء نضرة وأوراقُها ملطخةً بذرق البلابل الكلس.

وهي تصدح دوماً بالأغنية ذاتها، فإذا ما غادرت صمتت الأغنية كذلك، ثم لا يبقى في كلّ موضع إلا هذا الذرق الكلس المتماثل.

ولا تُسمع في القرية البلابل، فهي لا تحلق صوب البيوت لأن القرية تعج بقطط معظمها من الجوار بأكمله. وتملأ الكلاب القرية تماماً كالقطط جارة بطونها عبر العشب جراً، مرشرشة على الطرقات بولها الدافئ، صغيرة تكسوها فراء مهترئة.

رؤوسها الصغيرة المدببة تتمايل أثناء الجري، وتدور فيها عيون صافية كالماء، خالية من كل تعبير كأنها عيون الطير. إنه الخوف دائماً في عيون هذه الكلاب، في أمخاخ هذه الكلاب. وتلقى الكلاب الركلات من الرجال والنساء على حدٍّ سواء. إلا أن ركلات النساء ليست شديدة القسوة لما يرتدين من نِعال.

أما الرجال فيرتدون تلك الأحذية المتينة العالية التي تندس أقدامهم فيها حتى العنق، وفوق ألسنة الأحذية رباطات خشنة معقودة بإحكام.

وتلقى الكلابُ على إثر هذه الركلات حتفها فوراً لتظل بعدها

أياماً منعطفة أو مستوية، جامدة على جوانب الطرقات، فتنتن رائحتها تحت أسراب الذباب.

الأوراق المنكمشة تطير في الجو كفطور غير مرئية.

وعندما تصاب أشجار الفاكهة بالأمراض يقول الرجال في القرية إن فطر الغابة اللعين قد عاد ثانية. فيخلطون مبيداتهم السامة ساطعة الخضرة التي تترك بثوراً على الأوراق حارقة العرق لتبقى الأوراق خشنة مثقبة كالغربال، فتنسج العناكبُ على الحواف المتآكلة شباكها البيضاء.

الوحل مخضرٌّ من الطحالب..

والذباب يئز في ريش الإوز المدهن. وحين يرطب الأرضَ المطرُ الذي يفسد الخشب يرى الناظر كم عميقة هي الطرق، وكم منجرفة هي التربة.

عندها تنتعل الأبقار أحذية عشوائية كبيرة من الطين تلج بها بوابات الدور، ورائحة العشب فائحة من بطونها. وتسبب درنات العشب التي ترتد صاعدة في بلاعيمها بعد أول مضغة ألماً في الصدر حتى لي أنا. وتمضغ الأبقار سارحة البال زائغة الأعين من وفرة المرعى والكلأ، فترجع كل مساء إلى القرية بهذه الأعين الزائغة.

ذات مرة انتشلتني بقرتنا بقرنيها لتقفز بي من فوق حفرة. وهناك تركتني أسقط في تجويف عميق خلفته عربة في الطريق لتجري من فوقي مبتعدة. حينئذ تراءى ضرعها الملطخ بالروث وكأنه سينقلع.

رحت أرقبها والهواء الساخن ينجرّ وراءها برهة، واشتعل اللحم

ألماً حيث انكشط الجلد في ركبتي حتى انتابني خوف أن أكون قد فارقت الحياة من شدة الألم، وقد عرفتُ في الوقت ذاته أني على قيد الحياة لأن الألم لم يبارحني. انتابني خوف أن يجد الموت طريقه إلي عبر هاتين الركبتين المثلومتين، فوضعت بِعَجَلٍ راحتيّ على الجروح.

ولأنّني كنت ما أزال على قيد الحياة اعتراني الكره.

وأردت أن أخرق بطنها المشعر بعيني، وأن أنبش حشاشتها الساخنة بيدي نبشاً، وأن أسلَّ ساعدي تحت جلدها سلاًّ حتى المرفقين.

ما زالت نبتة الغرنوق تحمل ماء المطر من اليوم السابق في عِرق ورقتها الخشن، فاغتسلتُ بمائها العكر وصار لي في المساء وجنتان حمراوان حقاً ورأيتني في المرآة أزداد جمالاً على جمال.

ولما قدتُ البقرة إلى الوادي بما فيّ من كرهٍ رحتُ أبحثُ عن أكبر شجيرة غرنوق في الوادي كلّه. وخلعتُ بجانب البقرة كل ثيابي وقد دَسّت رأسها المستطيل في العشب واقفة وعظام قفاها البارزة قبالتي، فغسلتُ هذه المرة جسدي كلّه. ثم استدارت البقرة نحوي واتسعت عيناها إلى حد لا يطاق، فسرتْ قشعريرة في بدني من نظرتها، فعجلتُ إذ ذاك بارتداء ثيابي.

وقد انشدت بشرتي بعد أن جفّت، وظهر عليها أثر كالزجاج. وشعرتُ في جسدي كلّه كيف أمسيت جميلةً، وخطوت خارجةً بحذر كي لا أتكسر، وسُوق العشب تتفرق بليونة لمشيتي، وكنت

أخشى أن تجرحني.

وكان في مشيتي شيء من ملاءات سرير جدتي المقواة. وعندما نمتُ فيها أول ليلة كانت تصدر حفيفاً لأية حركة فأظنه من بشرتي.

وكنت أحياناً أستلقي فيها بسكون، فيصدر حفيف رغم ذلك. وشعرت بالخوف أن يكون الرجل الطويل بارز العظام في الغرفة، الرجل الذي كان قد اشترى منزلاً في طرف القرية ولا أحد يعلم من أين أتى، والكلّ يعلم أنّه لم يكن في حاجة للذهاب إلى العمل، لأنه قد باع هيكله العظمي الهائل للمتحف وكان يتلقى شهرياً نقوداً لأجل ذلك.

كان هذا الرجل في غرفتي ليالي عديدة أراه دوماً خلف الستارة أو تحت السرير أو خلف الخزانة أو في الموقد المبلّط.

ولما كان الخوف يقض مضجعي ليلاً، ولما كنت أنهض متلمسة الأثاث في الظلمة كنت أعرف رغم ذلك أنه هناك.

كان على سقف الغرفة صباحاً مجردُ فراشاتِ ليلٍ غبراءَ بُنيَّة تصطدم مساءً بمظلّة المصباح في طيرانها.

وأمسكتُها فجعل غبارُها أصابعي بُنيَّةً، وباتت أجنحتها شفافة في الموضع الذي لامستها فيه. فإذا تركتُها تفلت من يدي رفرفت لبرهة من دون أن تتجاوز ركبتي، ولم يعد بمقدورها الارتفاع أكثر، فأردت أن أريحها فدهستها بحذائي لتنفتق البطن الناعمة المكتنزة راشقة حليباً أبيض على الأرض. عندها دب القرف فيّ صاعداً من حذائي ليلف ألسنته حول عنقي بارد اليدين يابسهما كأيدي العجّز

الذين رأيتهم في أسرة لها مصاريع يجلس الناس إزاءها واجمين مصلين.

كانت ذقون العجائز ترتجف فوق عقدة الإيشارب المحكمة، وكنتُ أرى القذى في رموشهن المبللة المتفرقة من دون أن أفهم معنى دموعهن.

قالت جدتي عن هذه الأسرّة إنها توابيت، وقالت عمّن طُرحوا فيها إنهم موتى ظانة وهي تقول ذلك أنّي لن أفهم هذه الكلمة. لقد فهمتها من دون أن أسمعها قط من قبل ورافقتني أينما حللت أياماً عديدة، وكنت أرى في كل قطعة دجاج في الحساء جثة. ثم لم تعد جدتي تأخذني معها إلى عند الموتى.

لكني كنت إذا عُزفت الموسيقى في القرية عصراً عرفت أن أحداً ما قد مات مرة أخرى.

لم أكن أعي لِمَ كان الموت يرابط خلف جدران البيوت ولم يستطع رؤيته أحد، أو إذا رآه فليس إلا بعد انقضائه، مع أنه عاش حياته كلّها بجواره.

ذات مرة مات أحدهم في الحقل بعد أن ضربته صاعقة. وكان أوّلَ زوج لهذه المرأة بعده هو أخوه الذي مات بمرض في الرئة، فبقيتْ بعدها وحيدة لسنوات، إذ لم يعد أحد راغباً بالزواج منها، ثم تزوجت برجل من قرية مجاورة عندما بلغ الرشدَ ابنُها الذي كان يشبه المعتّق الذي كان يجول في القرية صيفاً، والذي كانت له خصلة شعر شيباء تحت صدغه لم يكن لأحد غيره في القرية مثلها.

وما زال زوجها هذا على قيد الحياة، واضطر أن يحمل طفله بنفسه للمعمودية لأن أحداً لم يرد أن يكون العرّاب، فقد كان كل واحد يعتقد أنه سيموت كذلك لو لامس ولد هذه المرأة.

عندما ذهبت إلى المدينة فيما بعد شاهدت الموت في الشارع قبل انقضائه.

كان الناس حينئذٍ يخرّون على الإسفلت آنين مرتجفين ولا أهل لهم. فيأتي آخرون ينتزعون خواتمهم وساعات أيديهم طالما لم تكن الأيدي قد جمدت وتخشبت بعد، منتشلين من أعناق النساء عقود الذهب ومن آذانهن الأقراط، فتنشقّ شحمات آذانهن وينقطع النزف بعد هنيهة.

ذات مرة بقيتُ لوحدي مع ميت غريب. وبعد أن حدّقتُ فيه مدة طويلة مديدة عدوت باكية لأستقل أول ترام صادفته، فسار بي إلى ناحية من نواحي المدينة لم أكن أعرفها. وعند المحطة الأخيرة تركني قاطعُ التذاكر أهبط بحذاء شجرة.

كانت جميع الشوارع في طريق عودتي محاطة بأسوار متينة.

ومددت ناظري كما لو من أسفل وَهْد إلى الوحدات السكنية مدمدمة بأن الناس حيث أقطن لا يستلقون هكذا على الشوارع، بل في أسرة ذات مصاريع يجلس الناس قبالتها مصلين.

والناس يبقونهم طويلاً في الدار، أعني الموتى، فلا يمسكون عن البكاء إلا حالما تميل أطراف آذانهم إلى الاخضرار بسبب التحلل، فيحملونهم خارج القرية.

تصيء حيوانات سمندل في عش يشبه حفنة من شعر الذرة المقضوض. ومن كل فأرة عارية تنساب عينان لصِقتان وأرجل دقيقة كخيوط غزل مبلولة وأصابع ملتوية.

وتصاعد الغبار من ألواح الأرضية الخشبية.

فتبدو الأيدي جراءه وكأنها ملوثة بالطباشير، ويحط على الوجه مسبباً شعوراً بالجفاف.

سلال محبوكة من الصفصاف لها مقبضان يحزان في راحة اليد حزاً.. فتَظهر فيها بثور قاسية محرقة تؤلم أيما إيلام.

والفئران الكبيرة رمادية مصقولة كأنها قضت عمراً بأكمله تُمسّد. وهي تروح وتغدو في سكون، جارّة وراءها ذيولاً طويلة دائرية، وكأنها لصغر رؤوسها لا ترى الأشياء من تحت غطاء جماجمها إلا حادة ضيقة مسطحة.

قالت أمي: انظري ما أعظم ضررها، كلّ العصافة هناك في الأسفل كانت ذات مرة ذرة، وقد قضمتها عن آخرها.

ويبرز من تحت قولحة ذرة أنف يشمشم فعينان تجولان، وأمي قابضة على قولحة، فتصيب الضربةُ الجمجمةَ، فتُسقسق ويسيل خيط من الدم على الأنف. يالها من حياة ضئيلة حتى إن الدم يبقى باهتاً.

وأقبل القط يقلب الفأرة الميتة تارة على ظهرها وطوراً على بطنها حتى خمدت أعضاؤها.

فينهش سَئِماً ضَجِراً رأسها ولفكّه صرير، وقد تبدو أنيابه أثناء المضغ، ثم يمضي لائعاً تاركاً وراءه بطن الفأرة رمادياً طرياً كالنوم.

قالت أمي: لقد شبع. إنه رابع فأر أُمسكه له اليوم. أمّا هو نفسه فلا يمسك أياً منها أبداً. هاهي تصول وتجول بين براثنه وهو نائم.. كتلة الوبر البليد هذا.

تُملأُ السلالُ ذرةً، وتتراءى الصومعة وكأنها تكبر، وستكون أكبر ما يكون حين تفرغ وتُصفِر.

وتتأرجح قوالح الذرة على يديّ كما لو من تلقاء نفسها لتقع في السلة كما لو من تلقاء نفسها.

ولا تألم راحةُ يدي إلا وهي خاوية. أما عندما تحتكُّ بها الذرةُ فلا أعود أحس بألم، إنه شديد.. إنه عظيم بحيث يقتل نفسه بنفسه. وأتقرّص قرصاً ثم لا يبقى لي يد ولا رسغ ولا أصابع.

وأنتشل بعض القوالح من الأسفل مسلكة طريق النجاة للفئران، وعقدة عظيمة من الخوف تسد حلقي.. عقدة عظيمة من النَّفَس.

وتتسلق فأرتان الجدار الخشبي فتهوي أمي عليهما بضربتين ترديهما.

فينهش القط رأسين ولأسنانه صرير.

إنه شهر تشرين الأول، وقت عيد تدشين الكنيسة.

يرمي ابن الجيران لأجلي في ركن الرماية الذي رُسمت فيه دجاجة وهرة ونمر وقزم وصبية على لوحات من القصدير، وكان القزم ذا لحية يشابه بها رجلَ عيد الميلاد.

وكان للرجل في ركن الرماية ذراع وحيدة، وتناول مني النقود التي دفعت بها إليه واقفة على أمشاط قدمي. فحشا إحدى البنادق

مستعيناً بيده وركبته دافعاً بها إلى صيادي.

ولقم صيادي البندقية سائلاً: ماذا أرمي لك. فنظرت إلى اللوحات واحدة تلو الأخرى قائلة له: الصبية، إرم الصبية.

وصوب بثبات حتى استحال كامل وجهه وحيد الجانب وبدا عليه الحزم كوجه صياد حقيقي.

وضغط على الزناد فانقلبت اللوحة وجعلت تتأرجح لحظات ثم سكنت، وتدلت الصبية رأساً على عقب وكأنها تقف على رأسها.

فقال الرجل في ركن الرماية: إصابة! اختاروا ما يحلو لكم.

وكانت نظاراتٌ شمسية وعقود معلقة بحبل ودمى في ثياب متينة فضفاضة من المطاط الزَّبَدي ومحافظ جيب على جانبها الخارجي صور نساء عاريات.

وقد انتصب على صفيحة الطاولة فئران ورجال وقّافون[4]، وبدا أحد الفئران مربوعاً على غير العادة فتناولته.

كان رمادي اللون داكناً، له رأس مستطيل وأذنان ممزّعتان وذيل من الجلد وبكرة أسفل بطنه لها خيط أبيض طويل ثُبّت بطرفه خاتم معدني برّاق.

ووضعت الفأر على كفي المبسوطة مدخلة رأس إصبعي في الخاتم، ثم سحبت يدي فهبط الفأر إلى الأرض آزّاً عادياً على نحو قوس كبيرةٍ وأنا أراقبه بوجه متلهف سامعة صرير عدوه.

ورحت أضحكُ بعد أن توقّف ضَحكاً ذا فواصل قصيرة.

(4) لعبة صغيرة ذات قاعدة مكورة فيها ثقل تعود واقفة كيفما ألقيت.

ثم لففتُ الخيط ثانية واضعة الفأر من جديد على راحتي، مدخلة رأس إصبعي في الخاتم ثم ساحبة يدي.

فهبط الفأر إلى الأرض آزّاً عادياً على نحو قوس كبيرة، صارّاً في عدوه ثانية، فأضحكُ ثانية.

وقد ظللتُ أضحك حتى حلول المساء حين أضاءت المصابيح في القرية. وعُزفت الموسيقى، ومضى العشاق ليشاهدوا الراقص الاستعراضي، وراح الأطفال يَثِبون خلف القطار وهو في طريق رحلته، فلا يراهم الناظر في مثار الغبار. وكنت أسمع ضجيج رقصهم في الزوايا في دوائر رائحين راجعين مرات ومرات ليعودوا من ثم إلى الوثب من جديد.

ذهبتُ وفأري في يدي إلى الدار ماشية على الرصيف. وفي تلك الليلة تركتُ الفأر بجانب سريري على رف النافذة.

كانت تلك الليلة صقيعية، وعيون القطط المضيئة تحمّي النار في الحظائر، والثلج ينهمر على الكلاب المبثوثة في الآفاق.

سمعتُ الخنزير يئن..

وكان ضئيل المقاومة حتى لم يكن من داعٍ للسلاسل.

كنت راقدة في فراشي وشعرت بالسكين على عنقي، فتألمت وأخذ الشق يزداد عمقا، فسخن لحمي، وبدأ حلقي يغلي غلياناً.

ثم صار الشق أطول مني ونما حتى غطا السرير بأكمله مشتعلاً تحت الدثار ناراً، مالئاً الغرفة أنينا.

وتدحرجتْ إلى السجادةِ الأحشاءُ الممزّقة يتصاعد منها البخارُ

منتنة الريح كالذرة ناقصة الهضم.

وتدلّت من فوق السرير معدةٌ محشوة ذرة من أمعاء جعلت تزداد رقةً وترجف.

حتى إذا ما أوشكت الأمعاء أن تنقطع أشعلتُ النور ماسحة العرق عن جبهتي بظهر يدي.

ارتديت ثيابي ويداي ترتجفان أثناء زر الأزرار، وكانت أكمامي وفردتا بنطالي ككيس، وثيابي كلّها ككيس. والغرفة كلّها كانت ككيس. بل أنا ذاتي كنت ككيس.

وخرجت إلى فناء الدار فرأيت البَدن الكبير معلقاً يتدلى، وعلى مقربة من الثلج أنف دائري يَنزف كأنّه قوقعة، وبطنٌ كبيرةٌ بيضاءُ كبطن سمكة حامل.. حيوان ثدييّ كبيرٌ يجترّ.

بقعُ دمٍ على الثلج.. كان لبياض الثلج بشرة بيضاء كالثلج ووجنتان حمراوان كالدم. ثلج ملطخ بالدماء.. ثلج ودم على جبال سبعةٍ. يصغي الأطفال إلى حكاية بياض الثلج متحمسين وجناتهم الملساء الناعمة.

وينخر البرد بملحه أسنمةَ البيوت، وفي بعض الأماكن تتفتت الكتابات المنقوشة فتهوي الأحرف والأرقام في فصول السنة التي تحطّ على الأسيجة كطيور نقّار الخشب صلبة العود، ناقرةً أعمال ربّاتِ البيوت اللائي يمكثْنَ وحيدات طيلةَ النهارِ عالقاتٍ في طيات تنوراتهن المظلمة، داخلاتٍ خارجاتٍ من بين جدران دورهن في صمت، والأبواب تميل على الغرف صارّة خلف ظهورهن.

وفي الظهيرة يخرجن من صمتهن بنداءات يردنَ بها الدجاجاتِ التي تلج الفناء بريشها الثائر وما علق بها من حبات الذرة الصفراء اللامعة، مصفقة بأجنحتها، مبعثرة ريشها في كل حدب وصوب، جالبة معها الريح من الشوارع.

ويرجع الأطفال من المدرسة صائحين، كبارُهم يدسّون الثلج في رقاب صغارهم، ويأخذون منهم حقائبهم المدرسية، فيضربون بها ظهورهم، وينتزعون قلنسواتهم من على رؤوسهم، فيلقون بها في القذارة، داسّين رؤوسهم في الثلج دساً.

حتى إذا ازرقت رؤوسهم من البرد ومن الخوف أجهشوا بالبكاء مما عانوا، وعادوا داخلين بيوتهم رثاث الثياب.

يعبُر الرجال الملثمون الطرقات خارجين من الحانة، على رؤوسهم قبعات من الفرو أتى عليها العثّ، شاردين يحدثون أنفسهم، ولهم شفاه وجفون بنفسجية اللون، يشبهون رجال الثلج الذين ينجلي عنهم الضباب عند منعطفات الشوارع ببطونهم الكبيرة التي ربما أطاحوا بها بالقرية. وفي الربيع حين تلعق الشمس أبدانهم الصلبة فتميع، تتراءى رؤوس العشب من تحت بطونهم، وتُوضع في الخمارات عوارض خشبية يسير عليها الرجال إلى براميل الخمر كأنهم طيور كبيرة من طيور السبخات. وعندما يقرقر الخمر في بلاعيمهم يقرقر الماء كذلك في أحذيتهم.

وهو ماء مصفرٌّ عسر يتجمّع عليه أثناء غسل الثياب غثاءٌ بدلاً من الرغوة ويستحيل الغسيل منه رماذياً.

تتهادى النسوة نحيلات في الشوارع بأسمالهن الطويلة، فيدخلن المحلات في ساعات الضحى الخالية يشترين الخميرة أو علب أعواد ثقاب، قبّات قمصانهنّ مجعدة، والورق المقوى بارز تحت إيشارباتهن التي تقبع مدبية على شعورهن.

وينتفخ العجين الذي يعجنّه كغول ليدب في أرجاء الدار ضالاً أسكرته الخميرة.

وتكشط العجائز عند الفطور طبقة القشطة الثخينة من على الحليب ماضغات الخبز السكري المبلول، وقذى الليل ما يزال في أعطاف عيونهن، وفي الظهيرة يمضغن نشا المعكرونة البيضاء المدورة.

وفي الشتاء يجلسن عصراً إلى النافذة حائكات الجوارب من الصوف الخشن، وتمتد الجوارب وتطول كطول الشتاء ذاته، لها أعقاب وأصابع ويعتليها الشعر كما لو كان بإمكانها السير وحدها.

وتطول الأنوف فوق إبر الحياكة لامعة بالدهن كاللحم المسلوق، فتتدلى القطرات منها براقة لبرهة لتقع على المريلة وتتلاشى.

وقد عُلّقت على الجدران صور أعراسهن لهن، فيها أكاليل ثقيلة على القميص المستوي وكذلك في شعورهن، ولهن أيد رقيقة جميلة على البطن وأوجه يافعة حزينة. وفي الصور التي بجانب تلك لهن أطفال بأيديهن، وأثداء مدورة تحت قمصانهن، وخلفهن عربة متوقفة تراكم عليها القش.

وتنمو أثناء الحياكة من ذقونهن شعرات كاللحية دقيقةٌ، وتزداد بهوتاً وشيباً، وقد يضل خيط من هذا الشعر طريقه منتهياً في الجورب.

ومع تقدم العمر تنمو شواربهن، ويبرز بعض الشعر من المناخر والثآليل. وقد صرن الآن مشعرات لا أثداء لهن. ثم إذا ما بلغت الشيخوخةُ بهن الذروة شاكلن إذن الرجال وقررن الموت.

الثلج في الخارج يتلألأ، وقد بالت بجانب الطرقات الكلاب على الثلج مخلفة وراءها بقعاً صفراء، كاشفة بقايا الشجيرات المتجمدة.

عند طرف القرية تصبح الدور منخفضة وتستوي بالأرض حتى لا يرى أين تنتهي تماماً. وعلى اليقطينات الثخينة ذاتِ الثآليل، المنسية في الحقل، تدب القرية نحو الوادي.

وحين يحل الظلام يجوب الأطفال القرية حاملين يقطيناتهم المضيئة المريبة الثملة.

يُستخرج من هذه اليقطينات اللب، ويُحزّ القشر فيصير له عينان وأنف مثلث وفم.

وفي جوف اليقطينة توضع شمعة، فيشع الضوء من ثقوب العينين والأنف والفم.

ويؤرجح الأطفال الرؤوس المقطوعة عبر الظلام، فيعدو بعضهم باكياً إلى الدار.

ويمر الكبار بهم مروراً.

وتشدّ النساء الأغطية على أنفسهن ماكثات وأصابعهن معلقة

بالأهداب. ويرفع الرجال أكمام المعاطف الثخينة إلى وجوههم.

تتلاشى الطبيعة في الغسق.

ونوافذ دورنا تضيء كضوء اليقطين.

يقطن الطبيب بعيداً من هنا. وله دراجة هوائية من دون ضوء فيربط مصباح جيبه بزر المعطف. لست أدري من منهما الطبيب ومن الدراجة. لقد وصل متأخراً جداً بعد أن تقيأ أبي كبده التي تنتن هناك في السلة كالتراب الفاسد.

وتجول أمي أمامه بعينين شاخصتين واسعتين مرسلة على وجهه الهواء بمنشفة المطبخ الضخمة وهي تبكي.

لفظت الشمعة في رأس أبي الأجوف آخر أنفاسها.

في طرف القرية تُلقى الأواني القديمة، طناجر مُطَعْوَجة مستهلكة لا قعر لها، وقدور صدئة، ومواقد اقتصادية مكسرة العيون لا أرجل لها، وبواري أفران مثقبة. وفي طست غسيل بلا قعر ينمو عشب عناقيده الزهرية فاقعة الصفار.

وتنخر الدودة لب ثمار البرقوق المرّ مخلفةً وراءها إفرازات شفافة في أنحاء القشر الأزرق.

وفي داخل الشجيرة تكاد الأوراق تختنق، وتهب الفروع من الحفرة متطاولة في الأطراف لتصير أشواكاً طويلة حادة تسعى في كل اتجاه باحثة عن الضوء.

في الوادي جسر متين من الفولاذ يسير فوقه القطار إلى السهل نفسه، إلى بلدة أخرى تبدو تماماً كهذه القرية. وتحت هذا الجسر ثلج

في الشتاء وظل في الصيف. أما الماء فلا يتواجد تحته أبداً. والنهر لا يكترث له، بل يتجاوزه في جريانه دونما توقف. وفي أيام الصيف الحارة تتجمع هناك الخرفان.

نباتات القُرّاص تلقي ظلالها المختلجة في القرية. وهي تدب بنارها في الأيدي تاركة وراءها عضات حمراء متورمة، لاعقة بألسنتها الدم، باثة الألم في العروق الجارية على اليد.

وتغوص البطات في ماء البركة العكر الدافئ لتعود وتظهر على السطح عند الضفة الأخرى بيضاء جافة كأنْ لم تكن في أيّ مكان.

وهي دهينة ضامرة الأجنحة قد نسيت أدمغتُها، التي لا يصلها إلا حظ قليل من الدم، منذ أمد بعيد أنها طيور.

وتستعمل النساء ريش أجنحتها لكنس الطحين وفتات الخبز من على الموائد.

ومن مناقيرها يقطر الماء العكر ليعود ويسقط في البركة محدثاً في الماء ارتعاشاً مديداً.

وفي الصيف تنتف النسوة الزغب الأبيض من بطونها، فتمشي على العشب منتوفة الريش صيفاً كاملاً، جارة أجنحتها وراءها، هازة إياها كما لو كانت أكتافاً. وتتبع ما حفرت الديدان في الأرض من أخاديد ضيقة، فتلتقمها إلى حواصلها مبطبطة، وتلقف الضفادع قاطعة عليها قفزاتها الطويلة.

فإذا ما حل الخريف ذُبحت.

ويُنتف الريش في موضع أسفل العنق عرضَ إبهام، فيُرى العرق

الرئيس نافراً يزداد ازرقاقاً وثخانة من الهلع. وتنصب جدتي نفسها على الجناحين بخفيها، فيُثبّت إذ ذاك الرأس إلى الوراء، ثم تحزّ السكين أكثر العروق ثخنا، فينفتق الشق ممتداً متسعاً، ويندفع الدم ويقطر ثم يسيل في الطست الأبيض. الجو حار وفي الهواء سواد ورعب.

جدتي واقفة بخفيها على الجناحين تلاحق ذبابة بعينيها منحنية القامة شاردة الذهن، واضعة يدها الطليقة على ظهرها، شاكية آلاماً في المستدقّ.

تقطّر الدم عن آخره.

وتترجل الجدة عن الجناحين، والجسد المهجور يرتعش عند جليدية القدمين. الموت حاضر، والريش الأبيض ريش طير من جديد، وسيطير الآن.

الصيف في أوجه.

ويختفي في قدر غالية الماء، وتسحبه جدتي من أرجله منقوع الريش مفرّقه. لقد غمرت الجدة طيراً في الماء لتسحب منه الآن جورباً صوفياً رثاً له رأس تأبى عيناه الانغلاق. وتنتفُ الريش من مسامات الجلد الأصفر ملقية إياه في الماء فيرسب إلى القعر ويعوم بعضه عند صفحة القدر.. يعوم في دوائر، كما لو أنه يبحث عن شيء ما.

وتحزّ جدتي قطعة في الصدر ثم ترفعه عالياً فيتصاعد منه البخار وتفوح منه رائحة دفء وضفادع ناقصة الهضم.

وقد استقر في الحويصلة الرقيقة الشفافة وَحلُ البركةِ الأخضرُ.

غداً يوم الأحد، وسيكون لي حين تنطلق الأجراس عند الظهيرة قلب وجناح في الصحن.

طاب أحدك، هنيئاً مريئاً.

خلف الحظائر، وفي حليب أزهار الحوذان، وفي وبر الشوك تلتف الأفاعي. أحياناً تتحرك الأوراق والسوق ولا أحد هناك، ولا حتى الريح.

ويتطلّع الناظر إلى هناك فيشتدّ التشنجُ الذي يغرز كلاليبه في اللحم غرزاً لتنسل خارجة من عظام القدم وتسقط أرضاً. وينظر إلى الأرض فيرى حذاءيه في مكان ما يسيران بمفردهما مبتعدين داميين، ويتحلّق الخوفُ في ريش أزهارِ الحوذان الذابلة الأبيض الحائم في الأرجاء. كلُّ ورقة وكلّ ساق تتحول إلى أفعى، فتضطرب الغوغاءُ في النفل متجمعة متفلطحة في الحلق والبطن.

وفي الليل يأتي الحلم من الفناء الخلفي ويندسّ في الفراش.

هاهو ذا غمْر القش قائمٌ بأعواده التي أفسدها المطر كالطين، تزحف عليها أفاع طويلة سوداء متزاحمة إلى جوفها. والقشّ في الداخل جافٌّ فاقع الصفار كأزهار الأعشاب، أما الأفاعي فباردة رطبة.

ويختفي الفناء، وتختفي الحدائق، وتختفي الدار كلّها في القش، فلا شباكَ يرى ولا سياجَ ولا أشجارَ ولا أسقفَ. وتخرج أمي إلى الشارع بمكنستها المهترئة فلا تكاد تشرع في الكَنْسِ حتى تنسلق

عصى المكنسة أفعى، فتُلقي بالمكنسة فارّة إلى الشارع باكيةً صارخةً طالبة النجدة. وتبقى الشبابيك مغلقة، وتبقى الأبجورات السحابة مغلقة، ولا يلوح في القرية كلّها أحد.

استيقظتُ والشعر خلف رقبتي وعلى جبيني مبتلّ مضطرب. وتقول جدتي إني صرخت في الحلم.

ثم تعود الأفاعي أدراجها زاحفة إلى أزهار الحوذان المؤللة.

وفي يوم من الأيام تجلب جدتي معها ثانية أفاعي تخرج من قبة قميصها ومن حبالها الصوتية ومن حديث من الأحاديث يبدأ ككل مرة بـ (فيما مضى).

وتخلطُ الملح في العجينة التي تغور فيها ساعداها حتى المرفقين وأنا أسكب الماء.

جدتي، ما أقسى يديك!

فيما مضى كانت القرية تعج بأفاعٍ تزحف من الغابة عابرة النهر إلى الحقول، ومن الحقول إلى الحدائق، ومن الحدائق إلى الأفنية، ومن الأفنية إلى الدور لتلتف هناك طيلة النهار خلف الدرج الأرضي مجترة الحليب البارد من الدلاء ليلاً.

وكانت النساء يصطحبن أطفالهن إلى العمل في الفناء وفي الحديقة، يجلسنهم في سلال الصفصاف بين الدُّثر، واضعات السلال في ظلال الأشجار، فيقتلعن بالمعزقة خصل العشب بجذورها وعقدةِ تراب من الأحواض، مرددات النَّفَس، معملات المعازق، ناضحات عرقاً.

كانت تعيش في طرف القرية. وكانت حينها في الحديقة وقد وضعت سلة الصفصاف وفيها الطفل تحت الشجرة، وبجانب السلة زجاجة حليب.

وجعلت تعزق الأرض وسط نبتات البطاطا ناظرة إلى الشمس، ورائحة العرق تفوح منها. ثم ألقت المعزقة جانباً وذهبت إلى أسفل الشجرة جوفاءَ النظرات ملتصقة الثياب بالجلد. ما عادت تطيق حراكاً، وانتشلت الطفل عالياً لتشهق صارخة، وما تدري وهي تتلوى على العشب إلا والحية تنسل طويلة بليدة من السلة إلى العشب، وما هي إلا ثوان فيشتعل الشيب في رأس المرأة.

ظلت المعزقة في الحديقة وظلت سلة الصفصاف تحت الشجرة وقد امتصت الحية ما في الزجاجة عن آخره.

وظل شعر المرأة أشيب، وكان لأهل القرية أخيراً ما أرادوا من دليل على أنها مشعوذة.

ولم يعد لهم حديث إلا عن السحر، وتركوها وحيدة مع نفسها يتجنبونها في الطريق ويشتمونها لأنها كانت تمشط شعرها على نحو مختلف، ولأنها كانت تربط إيشاربها على نحو مختلف، ولأنها كانت تطلي أبوابها وشبابيكها على نحو مختلف عما فعل أهل القرية، ولأنها كانت ترتدي ثياباً مختلفة ولها أيام أعيادٍ مختلفة، ولأنها لم تكنس الأرصفة قط وكانت تشرب عند الذبح كما يشرب الرجل وتمسي سكرى، وبدلاً من أن تغسل الأواني والصحون وتملّح الدهن كانت ترقص وحيدة مع المكنسة.

ثم بعد أن شَحُب زوجها في الربيع ورقّ إذا به صبيحة أحد الأيام جامداً بارداً في السرير.

دفنته مضطرة في القصب خلف المقبرة حيث الماء يقرقر لوطء الأقدام.

ولم يسبق للقصب أن شبّ بهذا الطول حاجباً الرؤية كما في ذاك الصيف. كانت الضفادع تنقّ وقد ازدادت برداً وانتفخت واكتنزت، وعلت طقطقة اليعاسيب في طيرانها لترتعش ثم تجثم في غبار الأزهار الأبيض. كانت ميتة وقبعت جميلة جوفاء في القصب.

وصعد في المساء دخان من القصب، فلقد أشعلت المشعوذة شموعاً مرة أخرى.

ولم يسبق للقرية أبداً أن عبقت برائحة الخريف كما في ذلك الصيف. وكانت الأعشاب الضارة هائجةً نامية في وفرة، مشتعلة بكل ألوان الإسراف.

كانت النسوة يتكلمن همساً إذا لقين بعضهن في الشارع شادّات إيشارباتهن الضيقة على وجوههن شداً حتى شابهت بعضهن بعضاً.

ومن طول الهمس غلظت أصواتهن كأصوات الرجال وقست وجوههن.

وانطلق الرجال متراصين في عربات ذات صريف إلى الحقل ولزموا الصمت أثناء العمل، يجرّون المناجل خلال العشب متصببين

عرقاً تحت وطأة العمل والصمت.

وفي الحانة لم يجلجل ضحك ولم يُسمع غناء، وجعل الذباب يئز بأغان حائرةٍ على الجدران في إلحاح.

وجلس الرجال فُرادى غائرين خلف الطاولات ساكبين ذاك الشراب الحارق عميقاً في حلوقهم، تاركين الرموش القصيرة تسقط، زامّين شفاههم بحزم، محركين عظم الوجنة في هذا الاتجاه وذاك.

ومن الحدائق انبعثت رائحة رطبة مرّة.

نما الخس في الحدائق داكنَ الحمرة قاسياً، له في دروبها حفيف كالورق. وكانت حبات البطاطا خضراء مرة تحت القشر، لها أعين ضامرة غائرة في اللب، وكانت قاسية صغيرة قبعت طوال الشتاء في جوف الأرض. أما نبتتها فَرَبَتْ ونضرت ناشرة أزهارها في أرجاء الصيف.

ونما الجِرجار مشتطّاً في الأحواض، ولم يسبق لجذوره أن كانت حادة متخشبة على هذا النحو. وبقي الورد البري أخضر حامضاً، فقد كان الصيف شديد الرطوبة عليه.

كانت المشعوذة واقفة عند منعطف أحد الشوارع.

ومزّقت النسوة شراشف أسرتهن البيضاء جاعلات منها شرائط عقدنها ووصلنها إلى الحدائق. وكانت السماء فوق الشرائط سوداء من فزّاعات الطيور التي اكتظت بها جميع الحدائق.

وحشَين بدلات الرجال قشّاً حتى امتلأت وغرزنها على رؤوس أسناد مرتفعة، واضعات عليها قبعات راحت تتمايل في الريح لا

رؤوس لها ولا وجوه.

وجعلت الطيور تصيح منهكة معلقة في الهواء.. كان الجوع يرفرف. لقد نما في الغابة متحاشياً القرية التي شابهت جزيرة سوداء.

ولما حل الشتاء استحالت الحدائق جرداء، وقست أحواضها وأقفرت. وظلت الفزاعات على الأسناد باسقة في الفضاء، منذرة حين تثلج السماء، واستحالت سَحَرة طوال القامة من الجليد والبورسلان مرتقية متعالية عن الأشجار.

ومن قبعاتها انهمر الثلج على القرية، وتلبّدت الغيوم على مناكبها، وانطلقت الغربان مرفرفة من حلقها إلى الوادي.

أثلجت السماء على الممر الطويل الذي لم يعلُ الشارع إلا بطابق واحد. وفي الفناء تهشّم العشب اليابس، ورقدت الدجاجات متلاصقةً في الأبواب. وفي الدار تبعثرت فروع النبات في كل الأنحاء لتُسمَع في الغرف طقطقة كما في الغابة. وكان في وسط الغرفة قرمة للتقطيع وبجانبها فأس.

وتسبح نغمة الفأس في النبع، فالمشعوذة تقطّع حطبها ثانية في الغرفة ورائحةٌ كالتفاح المحروق تنبعث من مدخنتها.

ويجيء رجال عيد الميلاد في القرية ويذهبون.

ويخاف الأطفال من جوزاتهم وبرتقالاتهم.

عيد ميلاد سعيد.

وقبيل العام الجديد تصل رسالة إلى القرية، فيُمعن ساعي البريد

النظر في الختم. إنها من بلدة غير معروفة في مكان ما من الريف. لا يوجد في قريتنا اسم لينا، فالرسالة إذن لا ريب لهذه المستعمِرة، لهذه المشعوذة الشابة ذات الشعر الأشيب.

يدري جدي أحياناً أنه لا يدري ما يدري. حينها يجول منفرداً في الدار وفي الفناء مخاطباً نفسه. رأيته مرة وهو يقطّع اللفت في الحظيرة من دون أن يراني. راح يدمدم في صوت مرتفع محركاً ذراعيه من دون أن يضع الفأس من يده. وجعل يضرب من حوله بالفأس في الهواء ليقوم واقفاً فيدور حول سلة اللفت، ووجهه يزداد انقباضاً، وقد بدا لطرفة عين شاباً على نحو لم يُشهد منذ زمن طويل.

وينتف جدي من شعر شاربيه الكثيف، فتبقى شعرات في يده يحدّق فيها ثم يلقيها على الأرض، ولا ينسى ولو لمرة أن يدوس عليها.

منذ بضع ليال ينام جدي في الحظيرة على مخزن العلف. فالبقرة ستلد، وهي تقف بدبرها قبالته قاذفة في القش روث اللفت هذا النحيل المائل إلى الخضرة، فيلطخ الجدران ويعلق بحائط الكلس ليتبخر في الهواء. وفي هذا الهواء الدافئ تنسى البقرة أن تلد.

مضى الكثير منذ انقضاء الموعد على تقويم الحائط الكاثوليكي في المطبخ. وقد كُتب بجانب تاريخ خطت حوله دائرة: البقرة عُشّرت، وبجانب أرقام أخرى كتب: الدجاجة أُحضنت البيض، التبغ سُلّم، الخنازير اشتُريت.

وأتأمل بطن البقرة السمين القاسي شاكّة في أنها ستبقى على قيد

الحياة بهذا البطن، ظانة أن ليس فيه سوى حجر كبير.

واليوم كذلك لا يُسمح لي بالبقاء عندما تلد البقرة. إنني لا أرى دائماً إلا العجل المكتمل بجانبها على القش، عظامه تطقطق وساقاه ترتجفان. لقد نثروا عليه النخالة، والبقرة تلعق الغشاء اللزج من على وبره.

إنني ممتعضة مرة أخرى من حيلة نثر النخالة هذه على العجل، فأنا أدري أن ذلك أيضاً غش.

وتريني القطةُ كذلك أُذنها المشقوقةَ، والثلج ملطّخ بالدم. حتى عندما يحلّ الصيف تبقى البقعة، تبقى هناك أبداً، لأني رأيتها في ذاك الموضع.

دمية نومي راقدة بوجهها على الكرسي، فأمدّدها على ظهرها. لها أنف مقلوع، وعليها ملابس شتوية ثخينة، وعيناها باليتان. وأنظر داخلهما فأرى ثقباً عميقاً فيه كرتان بلاستيكيتان معلقتان بريشة. هذه حال عيني دميتي الزرقاوين الجميلتين.

ينسج الصقيع زهري الشكل أجمته على زجاج النوافذ. وأُحسّ رعشة جميلة تسري في بشرتي. وتُقصّر أمي أظافري حتى تؤلمني أناملي، وأُحس أني لا أستطيع السير كما يُرام بهذه الأظافر حديثة القص.

فأواصل السير إذن على يديّ، وأحس كذلك أني بهذه الأظافر القصيرة لا أستطيع الحديث أو التفكير كما يجب، وأن هذا اليوم ليس إلا جهداً عظيماً.

أزهار الصقيع تلتهم أوراقها، ولها وجه أعمى العيون أبيضها كالحليب.

وعلى السفرة يتصاعد البخار من حساء المعكرونة الساخن. وتقول أمي: هلمّوا إلى الطعام، فإذا تخلفتُ بعد الدعوة الأولى ولم أقف عند حافة الطاولة طبعت يداها القاسيتان آثارهما على خدي.

أما جدي فيدعها تناديه مرات ومرات. وأعتقد أحياناً أنّه يفعل ذلك حبّاً بي، وإنه ليعجبني حين يصم أذنيه عن أمي.

ويغسل نشارة الخشب عن يديه، ويجلس على كرسيه عند نهاية السفرة.

وما زال الصمت مطبقاً، وحلقي جاف، ولا يجوز أن أطلب الماء لأنه لا يجوز أن أتكلم أثناء الطعام.

عندما أكبر سأطبخ أزهار الصقيع، ولسوف أتكلم أثناء الطعام وأشرب الماء بعد كل لقمة.

وَلجَ أبي من الباب وعلى جزمته هذه الشظايا اللماعة الشفافة، فخلع قفازيه ليجلس على الكرسي.

وبقيتْ على الأرض حيث كان واقفاً رقعةُ ماءٍ باردٍ مرتعش، وحيث ذهب خلّف وراءه آثاراً رطبة من حذائه على الأرضية الخشبية.

ثم نزع جزمته وكانت ضيقة مصنوعة من جلد بقر شديد المتانة.

وسحب لفافتي قدميه من ساقي الجزمة وكانتا مبلولتين بماء الثلج

والعرق، مُجَعدتين من المشي.

كان أبي أخمص القدمين ويستحيل عقباه في الشتاء أيضاً مشققين خشنين. وكان إذا حكّ هذين العقبين المشققين الخشنين مساء بسقيفة ليُملّسهما لم يصبحا أملس ولا أطرى. وعلى ما كان فيهما من خشونة وقساوة فقد كانا عقبيه. وظني أنْ لم يكن في القرية أحد إلا ولديه مثل هذين العقبين المشققين الخشنين. ولعل التربة التي قامت عليها القرية وسمّاها الكل حقلاً، كانت هي العلةَ وراء هذه الأعقاب. فقد كانت هذه التربة متلبدة وعرة. علّقت أمي اللفافتين على قضيب الموقد الاقتصادي. وكانتا من قماش مُقلّم من أحد أقمشة أثوابي المخصصة ليوم الأحد التي صغرت علي. وكنتُ حصلت على هذا الثوب لعيد الفصح وفخرت به أيما فخر.

كان المصور عند في القرية. وكنتُ بضّة لي هُزوم عند المعصمين وبكرة على رأسي تُرطّب دائماً في أيام الأعياد بالماء السكري لتُلف بعنق ملعقة الطهي. وكانت مُعوجّة كما في جميع أيام الأعياد لأن أمي كانت تبكي، فلقد عاد أبي من الحانة سكرانَ من جديد.

أُفسِد يوم العيد كما هو حال كل أيام الأعياد في هذا البيت.

وإدراك ذلك ممكن في هذه الصورة كذلك، من بكرة الشعر والماء السكري المعوجة، من ابتسامتي المعوجة.

ذهبتُ ماشطة شعري جاهزة الثياب إلى الفناء الخلفي، فحبست نفْسي في المرحاض، ونزّلت السروال لأجلس على المقعد المنتن مجهشة بالبكاء مع نفسي عالياً. بكيت هناك كي لا يُكشف أمري،

وكنت إذا سمعت وقع أقدام في الخارج سكنت فجأة وجعلت أخشخش بورق المرحاض، فقد كنت أدري أن البكاء في هذا البيت لا يجوز من دون سبب. وكانت أمي تشبعني ضرباً أحياناً إذا بكيت قائلة: ها قد صار عندك الآن سبب للبكاء.

مسحتُ مؤخرتي رغم ذلك بورق المرحاض ثم نظرت في المصرف فرأيتُ دوداً أبيض يسري في الغائط. ورأيت العُجر السوداء الصغيرة فعرفت أن جدتي أصابها الإمساك من جديد، ورأيت غائط أبي الأصفر الفاقع وغائط أمي الضارب إلى الحمرة. وأخذت أبحث عن غائط جدي وإذ بأمي تصيح باسمي في الفناء، فلما مثلتُ أخيراً أمامها في الغرفة توقفتْ عن لف جوربها على ساقها لتهوي بصفعة على وجهي قائلة: عليك الإجابة عندما أناديك.

ولّما وصلنا إلى جدتي التي تقيم في الطرف الآخر من القرية، راحت أمي تبكي قائلة إن أبي يعود كل يوم سكران إلى البيت. جلس أبي إلى الطاولة ولم يلمس كأس النبيذ الذي وضعته جدتي أمامه، ثم قام متأبطاً سترته ماضياً في طريقه. وتوكّأتْ أمي براحتي يديها على الموقد المبلّط شاهقة. أما أنا فجعلت أقضم قطعة من الكعك.

وأوكأت أمي كامل جسدها إلى الموقد المبلّط ناحبة في بكاءها، ثم لاحظت فجأة أني كنت جالسة على المقعد أنظر إليها، فصاحت بي وبهايني على غفلة منا. اخرجا إلى الفناء، اخرجا والعبا!

وقفنا هايني وأنا في الفناء لا ننطق بكلمة، وهايني يقضم ظفر سبابته.

ورحتُ أجول في الفناء بلا هدف، واختفى هايني بين سوق الذرة في الحديقة. ووقفتُ بجانب تلة الرمل وبريقٌ كثير يشع فيه. كان الرمل جافاً مع أن الأشعة فيه تراءت رطبة، وشرعتُ في بناء بيت.

لَمِ يُدعى كلّ ما تقوم به الأمهات عملاً، وكلّ ما يقوم به الأطفال لعباً؟ وصار في بيتي شقوق تحت أشعة الشمس، فحففتُ جدرانه وسوّيتها. كان لدار جدتي جدران عفنة رطبة، كثيراً ما تبيّضها جدتي فيعود العفن ضاربا في اللون سريعا، وكان مالحا.

كان الماعز إذا رجع في أمسيات الصيف من المرج لعق هذه الجدران. وكان في الداخل حول جميع الجدران آثار رمل دفع به النمل من الشارع إلى الدار.

وكذلك على أرض الدار في الغرفة كان ثمة نمل. ولم يكن لدى جدتي أي شيء ضد النمل.

ذات مرة دبّ النمل في علبة السكر، وفاق ما فيها من النمل ما كان فيها من كريستالات السكر، وبدت النملات كبذور الخشخاش بعضها يموج في بعض.

وكنت أخشاها، فقد كانت متناهية الدقة لا تُعدّ ولا تحصى، ولم يكن لها ضجة أثناء عملها. استخلصت جدتي كريستالات السكر واحدة فواحدة قائلة إن النمل ليس بقذر ولا سام والسكر ما زال صالحاً للاستعمال.

أما أنا فرغبت عن هذا السكر وسكبت نصيبي من الشاي في

وعاء ماء الشرب حينما خرجت جدتي من المطبخ.

كان الجو صيفاً طيلة النهار، فإذا حل الظلام لم يعد يعني شيئاً أي فصل من فصول السنة كان، لأن الناس لا تعود تلحظ منه شيئاً. كان الوقت مساء فحسب، وعاصفة تعصف في الخارج، والمطر ينهمل على السقف، والماء يندفع من مجاري السقف. ألقت جدتي كيساً على نفسها حاملة البرميل الخشبي الكبير لتضعه أسفل مجرى السقف. فقد أرادت جمع ماء المطر.

ماء المطر.. لم أستطع إلا أن أفكر في المخمل. كان ناعماً يصير شعر الرأس منه حريرياً ليّنا.

كان الليل قد جنّ. ولم أدرك أبداً كيف كان حلول الليل الصامت هذا. كلّ مساء كان الصيف يغرق في وسط القرية بلا مبالاة ليكتنف الأرجاءَ ظلامٌ دامس وسكون قاتل.

ما زالت السماء تبرق وترعد وقد غطتني اللحف كثلج ثقيل وفي حلقي الكثير من العشب النّضح.

كانت الغرفة تضيء بين الفينة والفينة، والعلب الفارغة الكبيرة التي حفظتها جدتي منذ سنوات تخشخش، وحيوانات عجيبةٌ غريبةٌ من بُقَعِ ضوءٍ وظلٍّ عديدةُ الأرجل تدب على سقف الغرفة، وأسلاك أعمدة التلغراف تتضارب قاذفة بالشوارع يمنة ويسرة.

في الخارج كانت الأشجار تتلاطم ليلاً، وكنت أراها من خلال الجدران. لقد صار منزل جدتي كأنه منزل زجاجي.

كانت الأشجار نحيلة ومع ذلك لم تنكسر. وأخذت تدنو من

فراشي أكثر فأكثر نافثة برداً قارساً.

وقد أردتُ أن أشربها لشدة شفافيتها وبرودتها، لكنها شقّت لي وجهي وقالت: نحن لسنا من الماء، بل نحن من الزجاج. حتى المطر من الزجاج.

ثم خَلَت الغرفة وجعل الرعد يرجّ الأبجور السّحاب رجاً.

وسمعتُ صوت البول الذي كان هايني يطرطشه في طنجرة الليل، فعرفت أني لم أكن وحيدة في هذه الغرفة.

ناديت هايني باسمه، فسألني وهو يبول: هل أنت خائفة؟

قليلاً. أضاء البرق الغرفة.

فرأيتُ كيف كان هايني يمسك بطنجرة الليل في يده واقفاً هناك بركبتين مثنيتين، وكان يظهر شديدَ البياض في سنا البرق.

كان علي كذلك أن أتبوّل، فنهضت وجلست على الطنجرة مقلّصة بطني كي أمنع صوت البول. لكنه راح يعلو ويعلو من تحتي. لم أقو على ذلك، لم أعد أستطيع جعله ينقّط.

وراح يندفع مني فاترا هادراً.

ودعاني هايني إليه قائلاً: أنا لا أخشى البرق. فانسللتُ إلى جانبه تحت اللحاف ناظرة في الغرفة وإذ بواحد من تلك الحيوانات ذات البقع المضيئة قابعاً على باب الصندوق.

وجعلت أحدّق فيه.

ربما وددتكَ لولا أنك تبول على هذا النحو الغريب من هذا الامتداد. ما أبشعه.

فليكن، غدا نقطعه.

الجدة تبول كثيراً ولها بطن منخفض جداً.

من أين تعرف هذا؟

إنه يُرى من خلال تنوراتها.

وهكذا إلى أن أتاح النهار لضجة الصيف أنْ تتسرب عبر الجدران. وعلى الشارع كانت القرية.

مضيتُ بين أعناق الوزّات إلى الدار وهي تهسّ خلفي، فخفتُ وعجّلت في السير، وغالبا ما تحوّلت إلى الجري.

ونبحني الكلب كأني غريبة. كانت أمي في العمل، وكان أبي في العمل، وكان جدي في العمل.

أما جدتي فكانت في الدار.

كانت جدتي أمّ أمي، والقرية تعج بالجدات.

وكان علي أن أقشّر البطاطا، فزلّت السكين حازّةً إصبعي.

واشتعل النشاء في شق الجرح، وعلا الدم حبة البطاطا، فتركتها تسقط في الماء لأتناولها وأقطّعها قطعاً ولستُ أدري في أيّ موضع أُعمل السكين. لم يكن بدٌّ من اتخاذ الكثير من القرارات أثناء تقطيع حبة بطاطا صغيرة، وكم يجب أن يكون طول شريحة بطاطا حسنة التقطيع وعرضها؟ ربما لم تكن أيّ منها حسنةَ التقطيع. ما من أحد يعرف ذلك.

وكانت الشريحة الأخيرة ملتوية بشعة، فألقيتُ بها في فمي وقرضتها، ثم بصقتها على قشور البطاطا، ولدقة ما قُرضت بدت

وكأنها مستفرَغة. ووضعتُ عليها حيات من قشور البطاطا كي أخفيها.

رشّت جدتي الدقيق على العجينة عاجنة إياها بالطول والعرض، مستقطعة في كل مرة فلذة منها لتدهنها ببياض البيض بالفرشاة، وتنورتها تتمايل، ومريلتها قد غطاها الدقيق.

للجدة الأخرى ثديان بضان، أما هذه فمسطحة تماماً. وللجدة الأخرى بطن منخفض، وقد رأى هايني ذلك. لعل جميع الجدات لهن بطون منخفضة. إلا أن ذلك لا يُرى عند هذه الجدة من خلال تنوراتها.

من يدري، قد يرى هايني ذلك. لكنّ له جدة واحدة كذلك، وأنا لي اثنتان. المسألة سهلة عند هايني. هايني يعرف كل شيء.

ترنّ الأجراس لقدّاس الصباح. وترفرف أسراب العصافير عالياً من برج الكنيسة محلّقة إلى أشجار الحور المرتفعة، والأغصان تضرب بعضها بعضاً. إنها تضطرب دائماً جالبة الريح إلى القرية في دوائر باردة واسعة حتى يضطر الرجال إلى تثبيت قبّعاتهم في سيرهم بإحدى أيديهم. والأوراق التي تتساقط من أشجار الحور خضراءُ نضرة كالصيف. ويقول رئيس البلدية: إن تساقط الأوراق في أوج الصيف ناشئ عن طنين الجرس الكبير الذي اختلّ صوته مما حط عليه من الصدأ. فيكتب القس إليه: إنّ الجرس الصغير معلق بانخفاض شديد في البرج. لذلك ثمة دوماً خلافاتٌ بين قس القرية ورئيس بلديتها.

تنعطف النسوة عند الزاوية متجاوزات التقاطع، راسمات بأيديهن إشارة الصليب ثلاثاً، لامسات بأصابعهن جباههن مرة، وأفواههن مرة، وصدورهن مرة.

ثم يصعدن الدرجات الأربع رافعات التنانير عند الورك كي لا يدسن على حواشيها. والتنانير عند الحواشي أثقل وأوسع وأجمل ما تكون.

هناك باب خشبي ثقيل وجدران ثخينة صمّاء لها في الأعلى كوّات ذات زجاج ملون يظهر ألواناً لا وجود لها في الكنيسة ولا في الشارع. ولا يجوز للقدّاس أن يخرج إلى الشارع، ولا يجوز للشارع أن يدخل الكنيسة. ويعلو صرير، ثم لا يلبث الباب الخشبي الثقيل أن ينغلق من جديد، فتسبح موسيقى آلة الأُرغُن في فضاء المكان طانّة كنحلات من حول الرأس حتى ألفت ذلك الأذنان وتوقف الصدغ عن الدقّ في الموسيقى.. حتى تتوقف العينان عن الاشتعال في حليب الشموع.

وتغمس النساء رؤوس أباهمهنّ خطفاً في قصعة الماء المقدس التي يعلوها الرمل راسمات مرة أخرى صليب الجبهة، فصليب الفم، فصليب الصدر، ليسرن هافّات محترزات، كما لو أردن ألا يشعرن بأنفسهن أثناء ذلك، إلى مقعد مازال فيه فجوة بين التنانير. فيحنين ركَبهنّ بجانب المقعد واضعات تنانيرهن على لوح الخشب لينهضنَ ويجلسنَ في المكان الشاغر راسمات الصليب مرة أخرى، داخلات مع صليب الصدر الثالث في وسط الصلاة.

ويطنّ الأرغن في الأعلى فوق الرواق.

ولدَوّاس الأرغن عينان زرقاوان لصقتان لا تنفكان تصغران وتغوران في رأسه. وله شعر شديد البياض وخصل حشيش جامدة متصلبة فوق فمه وحول عينيه، إذا تكلم اصطك طقم أسنانه، وإذا ضحك أوشك أن يسقط على الأرض لو لم يسبق بوضع يده تحت ذقنه. فإذا استطرد في الضحك فاغراً فاه خلال ذلك أكثر مما ينبغي، وقع الفكان كل مرة في يده.

فأخذ يقحمهما في فمه حائر النظرات، لكن الضحك ينقطع. إنه لا يستطيع أن يضحك ضحكه حتى النهاية، ويقول أحياناً: إن التقدم في السن شيء كريه.

قبل عام كان طقم أسنانه صغيراً جداً، وكان يضغط على لثته فيدميها. فذهب بذاك الحنك الملتهب إلى طبيب الأسنان في القرية. فما كان منه إلا أن فتح الشبّاك بشدة ملقياً بالفكين بعيداً في حديقة الكنيسة. فخاض دوّاس الأرغن وسط النّفل، وكان النفل قد جُزّ حديثاً، فلاحَ الفكانِ من بعيد. تراءيا له لوهلة غريبين كما لو كانا فكي كلب. فرفعهما ماسحاً ما علق بهما من الأتربة بمنديله، وطبيب الأسنان ما زال واقفاً في إطار النافذة ماداً يده نحوه وقد تقطّب وجهه من الخوف محركاً أصابعه كأنه يلوّح. ووضع دوّاس الأرغن الفكين في كفه البيضاء الكبيرة، ولما عاد ووقف في الحجرة جعل الطبيب يبرد الجهة الداخلية من الأسنان ناثراً منها برادة بيضاء على الأرض وقد كاد ينقلب ودوداً. إلا أن دوّاس الأرغن راح يحدق

واجماً في الكماشات والمقصات الراقدة على خرق بيضاء. فلما أراد طبيب الأسنان دفع الفكين في فمه أطبق شفتيه بعزم ماداً يده ليتوجه مع طقم الأسنان في يده إلى الباب خارجاً من دون تحية.

وفي الخارج دسَّ طقمَ الأسنان في جيب سترته ليدسّه أمام البوابة في فمه، وهو الآن يرتجّ وقد صار كبيراً جداً. لكن دوّاس الأرغن لم يَعُد مذ ذاك إلى طبيب الأسنان.

وهو يحمل أثناء الدّوس على دوّاسة الأرغن قبعته في يده مستنداً بيده الأخرى إلى صفيحة صندوق الأرغن، داعساً على لوح الدواسة في فواصل منتظمة مناسبة وكأنه يقود دراجة، أو كأنه يريد جعل صندوق الأرغن يتدحرج. ثم تبدأ الألواح والكنيسة كلّها بالطنين تحت قدميه.

ويغلق أثناء الدوس عينيه مستغرقاً في خواطره التي تنقطع أحياناً لأنه غفا كما تنقطع الرباطات البالية. بيد أنه يدوس اللوح في فواصل منتظمة حتى وهو نائم.

وتنفكّ أزرار بنطال دوّاس الأرغن دوماً أثناء الدوس، فيزرّها بعد كل نشيد، فإن نسي ذلك فلا يزرّها إلا بعد القدّاس، فإن نسي ذلك بعد القداس أيضاً فلا يزرّها إلا في الدار حين تملأ زوجته الدار صراخا بكلمة (يا للعار) مسرعة بين الطسوت والطناجر. وهي تملّح ككل يوم أحدٍ حساءَ الأحد وتنسى قالب الحلوى في قلب الفرن.

جدتي جالسة معي في المقعد الخامس، وبجانبي تجلس ليني الطويلة، وهي أطول امرأة في القرية. وهي في الشارع ليست طويلة

إلى هذا الحد، لكنها هنا تجلس هامدة قاسية السحنة كالحجر وتبدو جامدة كالعصا. ثيابها نظيفة مكوية، وقد دُرزت على قميصها درزات كثيرة، وحيكت في مريلتها ثقوب بحرير أسود يلمع حتى لو لم تقع عليه بقعة ضئيلة من نور الشمس. وليني الطويلة لها أصابع طويلة جداً مستقيمة جداً، وكتفاها مستقيمان ككتفي علاقة الثياب. إنها جميلة لكنّها تبدو صادّة باردة. وأنزاح بعيداً عنها لأدنو من مريلة جدتي بشدة، فتنظر إليّ جدتي حانقة.

وأسندُ قفا رأسي على رقبتي. حتى السماء في الكنيسة حائط، وهي سماوية الزرقة مكتظة بالنجوم.

وأسأل جدتي: أي منها نجم المساء؟ فتهسّ بكلمة حمقاء ماضية في صلاتها. أما أنا فأمضي في التفكير بأن ماريا ليست بماريا حقيقية، بل امرأة من جِبْس، وأن الملاك ليس ملاكاً حقيقياً، وأن الخراف ليست خرافاً حقيقية، وأن الدم ليس إلا طلاء زيتياً.

ليني الطويلة تصلي في أذني، إنها ليني الحقيقية. وأنظر إلى جدتي، ليس إلى وجهها، بل إلى يديها.

أوتار يدها جميعاً متوترة ولم يعد يغطيها لحم، بل هي مجرد عظام وجلد هزيل، ولربما جمدت في الموت في كل لحظة، لكنها ما زالت تتحرك في الصلاة والمسباح يرن.

إنه منضغط بين عظام يد جدتي، والخرزات الزرقاء تندفع في هاتين اليدين الصغيرتين المتعجّرتين اللتين تبدوان كالعمل نفسه، مخرّشتَين كالخشب القاسي المبعثر في أرجاء الدار، مخدّشتين مزخرفتين عتيقتين

كأثاثها. على المقاعد نُجود ثخينة طويلة، تبلغ من طرف المقعد إلى الطرف الآخر وتبدو كدواليب السباحة.

والقس هو من تكفّل بالنجود لكي يَحضر أهل القرية في الشتاء أيضاً إلى الكنيسة.

وحتى في الصيف أرتجف برداً عندما أجلس في هذه المقاعد. المكان هنا معتم دائماً، والرعشة التي تعتريني تتصاعد من البلاط. إنّه مخيفٌ كسهل واسع من الجليد لم يعد للسائر من رجلين في بدنه لكثرة ما مشى عليه فاضطر أن يتابع المسير على وجهه.

وتنهال علي الجدران والمقاعد وأثواب الأحد والنساء المدمدمات، فلا أستطيع الدفاع عن نفسي حتى مصلية، ولا حتى من نفسي. ويعتري شفتيّ البرد.

رافق فيندل جدته حتى وصلا الكنيسة، وكان علي أن أمسك بيده من الدار حتى باب الكنيسة. عبْر القريةِ كلّها، عبر شارع القرية الفارغ، كان علي أن أسير معه، على الشارع الذي تُرى فيه حتى الخنفساء دابة على الطريق. ويجلس فيندل في الأعلى على الرواق بجانب دوّاس الأرغن ناظراً إلى قدمه بنعلها الثقيل.

وفي كل أحد، عندما نعود من الكنيسة، يحكي لي فيندل أنه كذلك يريد أن يصبح دوّاس أرغن. فالدوّاس يدوس على اللوح وله خواطره في رأسه، وهو يدوس فيبدأ الآخرون كل الآخرين بالإنشاد، فإذا أمسك عن الدوس أمسكوا هم عن الإنشاد. ذات مرة جلس فيندل قدّاماً في مقعد الأطفال ورافق الآخرين آنذاك في

الصلاة بصوت عال، مربكاً الأطفال الآخرين بجانبه.

فما كان إلا أن قذف القس بقطعة طباشير من المنبر، وإذ لفيندل خط من الطباشير على ياقة سترته، فمكث جالساً في مكانه جامداً واجماً، إذ لا يجوز حتى البكاء أثناء القدّاس، إلا إذا كان البكاء أثناء الموعظة أو بعدها.

حتى الوقوف لم يكن جائزاً.

ومذذاك يصعد فيندل إذا ما أغلق باب الكنيسة خلفه السلالم الرفيعة الملتفة إلى رواق الأرغن.

ويجلس في مقعد خال بجانب دوّاس الأرغن.

ومن الجهة الأخرى يجلس لورنس الأحدب في مقعد خال آخر.

وحتى أثناء القدّاس يعتري لورنس هذا السعال الجاف الحاد، فتلتفت منشدات الخورس برؤوسهن نحوه منشدات وقد ظهرت على وجوههن تعابير الغضب. أما لورنس فينظر إلى حناجرهن التي تعلو وتهبط مع الإنشاد، ويرى كيف تنفر عروقهن على أعناقهن لتخمد في الجلد مرة أخرى.

ويشيح لورنس بناظريه إلى سطح المقعد أسفل مرفقيه وقد نُقشت عليه أسماء وتواريخ مع قلوب وسهام وأقواسٍ نَقش بعضَها لورنس نفسه.

لقد نقش لورنس اسمه على الخشب بمسمار طويل.

وقد كتب لورنس اسمه على صندوق الأرغن، وهو يُرى من

بعيد، فلورنس يحب رسم الأحرف كبيرة.

وعلى الدعامة الرئيسيةِ كُتب: *لورنس + كاتي*. ولورنس هو من كتبها بنفسه. حتى على صفيحة صندوق الأرغن المغبرّة قد كُتب *لورنس*، وتبقى هذه الكلمة مكتوبة هناك إلى أن تستند إحدى منشدات الخورس بظهرها إليها.

وعندما يتوقف الإنشاد تبدأ دمدمة الصلاة من أسفل في المقاعد، وتهبط النساء جميعاً جاثيات على ركبهن، راسمات ذاك الصليب الثلاثي، مدمدمات (إلهي-إني-لست-جديراً) ليرسمن صليباً آخر وينهضنَ واقفات.

وآخذُ بالصلاة فتكزني جدتي بظهر ركبتها في فخذي، فأخفض من صوتي بالصلاة. أريد أن أخلص نفسي من الذنب بالصلاة. فأنا أعرف أن أبي قد كسر رجل العجل.

لا يجوز في القرية ذبح العجول أو تقطير الشنبْص. وفي الصيف تملأ رائحة الشنبص القرية كلّها كأنها مرجل شنبص هائل. كلٌّ يقطر شنبصه في مكان ما من الفناء الخلفي وراء السياج، ولا أحد يتحدث عن ذلك، ولا حتى مع جاره.

كان أبي قد ضرب رجل العجل صباحاً بعصا المعزقة فكسرها وذهب على إثر ذلك ليستدعي الطبيب البيطري.

وأتى الطبيب البيطري عند الظهيرة على دراجته يقودها إلى الفناء فأسندها إلى شجرة الخوخ لترتقي الدجاجات عليها ما إن توارى خلف باب الحظيرة.

فشرح أبي للطبيب بالرومانية كيف أن رجل العجل علقت في السلسلة عند المِذْوَد، وكيف لم يتمكن بعدها من الإفلات، ثم كيف هوى بكامل جسمه على القضيب كاسراً رجله.

وراح أبي أثناء الشرح يمسح بيده على ظهر العجل. ونظرتُ في وجه أبي، فلم يبد عليه أنه لا يقول الحقيقة. وأردت أن أزيح يده عن ظهر العجل، أردت أن ألقي بيده في الفناء وأدهسها دهساً. أردت أن تسقط أسنانه من فمه لأجل هذه الكذبة.

كان أبي لا يقول الحقيقة. وكل من وقفوا هناك كذبوا بصمتهم. كانوا جميعاً يحلقون في الفراغ. وجعلتُ أرمقهم واحداً تلو الآخر، أرمق هذه الوجوه الزنخة الكريهة، هذه الأنوف وهذه العيون وهذه الرؤوس المشعرة الهلباء. وتضاعف الشعر على ذقن أبي موارياً فظاظته، وراحت يداه تسعيان وراء الكلمات سعياً، فاعلتان كل ما فعلتاه بإقناع.

ثم أخرج الطبيب مخشخشاً دفتراً من حقيبته الزنخة، فكتب على ورقة ونزعها ممسكاً بها إزاء وجه أبي، وقد دس أبي بورقة المائة ليو في جيب سترة الطبيب بينما هو يكتب، فتصرّف الطبيب كما لو لم يلحظ أياً من ذلك ماضياً في الكتابة.

ثم أمسك جذاذة بيده وردَ فيها أن العجل قد تعرّض لحادث، وكانت تلك رخصة الذبح الاضطراري.

وأفرغ الطبيب كأس الشنبص الثامن كذلك في جوفه دفعة واحدة، ثم طرد الدجاجات من على دراجته فأقلعن عنها مقوقئات

في الهواء وقد تكدّس على القعادة ذرق دجاج طازج. وفرحتُ عندما مُسِح فصبغ القعادة كلّها. وتدحرجت العجلة خارجة من بوابة الزقاق ليلقي الطبيب بنفسه من الجانب على الدراجة منطلقاً حادب الظهر، وقفاه يتدلى من جهتي القعادة كعجينة جدتي التي تنتفش عند الحافة أثناء الخَبز، والدراجة تئن تحت وطأة ثقله. وجلب العم مطرقة من الفناء الخلفي.

وربطت أمي المريلة حوله، فالتفّتْ على قفاه شريطة طويلة. ثم شمّرت له القميص عن ساعديه حتى المرفقين ماضية في الطيّ لا تريد أن تتوقف، بادية في ذلك لجوجة لكثرة ما ضحكت.

وشمرت أمي لأبي كذلك عن ساعديه فاعلة ذلك في عجل وفي غير لجاجة لتشمر إذ ذاك عن ساعديها أيضاً فاعلة ذلك في عجل، ولم يكن لها أثناء ذلك وجه في وجهها.

أما جدي فسحب ذراعه مشمراً عن ساعديه بنفسه.

كنت خائفة، وكان لهم جميعاً شعر على سواعدهم. فنزّلتُ كمّيْ قميصي على يديّ كثيراً مغلقة إياهما من الداخل بأصابعي ككيس مربوط. واضطررتُ لأن أقف هناك لبرهة مربوطة الكمين كي لا أطلق يديّ، وكي لا أخمش ولا أختنق.

وانحنى السنونو بجانب العارضة ببطنه الأبيض كله من حافة العشّ ناظراً إلى أسفل لا ينبس بسقسقة واحدة. فلما رفع العمّ المطرقة عالياً جريتُ إلى الفناء ومكثت تحت شجرة الخوخ، سادّة أذنيّ بكلتا يدي. وكان الجو حاراً خاوياً. أما السنونو فلم يأت معي،

بل كان عليه أن يرقد على البيض مشرفاً على حالة إعدام.

وكان في الفناء من الكلاب الغريبة ما يملأ القرية، وراحت تلعق الدم من قش كومة الفضلات منتشلة أظلافاً وقطع جلد إلى البيدر، فينتزعها العم من أشداقها، إذ لا يجوز أن تخرج بها إلى الشارع.

وكان في السماد الحيواني عينان اثنتان، فعضت الهرة على إحداهما بأنيابها، فانفقأت وارتشّ سائل لزج مزرورق على وجهها، فنفضت نفسها ماضية بأرجل مفرودة متصلبة.

قطع العم عظماً بالمنشار كان ثخيناً كذراعه.

وعلّق أبي الفروة الكبيرة الملطخة بالدم بمسامير على حائط الهُري حيث سطعت شمس الظهيرة. وبعد بضعة أسابيع بُسطت لي فروة عجل أمام السرير.

وجعلتُ كل مساء أحمل البساط من أمام السرير إلى الخارج لأني كنت ليلاً أحس بشعره كلّه في حلقي، وأحلم بأنه علي أكل الفروة بالسكين والشوكة، وأني آكل وأستفرغ وعلي الاستمرار في الأكل، فأستفرغ المزيد من الشعر وعمي يقول: عليك أن تأكلي كل شيء أو تموتين. ولما هممتُ بأن أموت استيقظت.

وفي الليلة التالية أجبرني أبي على امتطاء العجل ليقودنا على مرج. وكانت الأزهار منتصبة في كثافة وعلوّ ونحن في وسط المرج، وإذا بظهر العجل ينقصم تحتي، فهممتُ بالنزول، إلا أن أبي صاح بي ومضى يقودني عبر مروج المناطق المحيطة كلّها التي لم تلح لها نهاية من كثرتها.

قادنا أبي عابراً النهر وهو ينعق بنا، ومضينا نسير خلال الغابة خلف صدى صوتنا.

وجعل العجل يلهث راكضاً من خشية الموت، ضارباً رأسه بشجرة فسالَ الدم من منخريه. وصار الدم على أصابع قدمي وعلى حذاء الصيف الجميل وعلى الثوب. وكانت الأرض من تحتي تنضح دماً عندما خرّ العجل.

شغّلت أمي الضوء من القاطع قائلة صباح الخير وألقت سجادة من فرو العجل أمام سريري. وراحت الغرفة تدور وأنا أنهض، والكثير من أشعة الشمس الحارة على وجهي، ثم خطوت خطوة كبيرة من فوق سجادة الفرو. وفي الظهيرة أتت أمي بدلو الحليب من الحظيرة إلى المطبخ، والرغوة تطفو على الحليب. فرحت أبحث عن حليب ورديّ غامق في الدلو. كان يجب أن يكون فيه دم. وكان الدلو دافئاً، وقد وضعت يديّ حوله وأرحتهما طويلاً عليه.

جعلت البقرة تخور أياماً وأياماً على القش الخالي لا تصيب من الطعام شيئاً، وتكرع أياماً الماء فحسب، ماءً بارداً فحسب، مغرقة رأسها في الوعاء وهي تعب الماء حتى طرفي أذنيها.

كانت أمي تجلب كل يوم حليباً دافئاً إلى المطبخ، حليباً فيه دفء البقر. وسألتها أتحزن هي كذلك لو سلبوها إياي، لو ذبحوني. فوقعتُ على باب الصندوق، وصار لي عجرة زرقاء على الجبين، وصار لي شفة علوية متورمة ورض بنفسجي على الذراع.. كل هذا من الصفعة.

وقالت أمي: كفى الآن نحيباً. كان علي أن أمسك عن الشهيق في طرفة عين وأن أحدّث أمي بودّ في الطرفة الأخرى. والأطفال لا يجوز لهم أن يكتّوا شيئاً لأبويهم، فكل ما يفعل الأبوان لا يستحق الأطفال غيره. كان علي أن أقرّ بصراحة وطواعية أني استحققت الصفعة وأن كل ضربة حادث خسارةً. وقد جلبت جدتي المكنسة الكبيرة لما سقطت زبديّة من الصندوق عندما وقعتُ عليه.

وبدأت جدتي تكنس.

فانتزعت أمي المكنسة من يدها ناصبةً إياها أمامي. ورحت أكنس الحطام وأنا أرى المطبخ أغبش بين دموع كثيرة.

كانت عصا المكنسة أطول مني، وجعلت تميل أمام عيني يمنة ويسرة. جعلت عصا المكنسة تدور، وجعل المطبخ يدور.

وتقطّب وجه أمي بشدة. تحركي.

على الأرصفة تسير الأمهات في تنورات صوابيّة حيكت من لفّات كاملة من القماش، تحاكي طياتها أثناء المسير تيجان الشجر التي تلقي بثقلها على سقوف البيوت ضاغطة على القرية نحو العشب، والتي ترتطم بالسقف إذا ما هبّتْ الريح فتكسر السقائف. وللأمهات مناديل مكوية بيضاء معلقة تحت شريطة المريلة. لقد انسللن صباح اليوم من أسرتهن من أجل البكاء، وتناولن الفطور والغداء من أجل البكاء.

إنهن يقمن بأعمال المنزل كلّها مجتمعة في حركات وقبضات من أيديهن، ويثقلن الرؤوس بالبحث عن الفراغ والهرب من

ذواتهن، ويخرجنَ يوماً بطوله من ذواتهن إلى خشب المنزل وقماشه وقصديره.

وفي الظهيرة يرخين عقد مريلاتهن ليتركنها تسقط إلى الأرض متناولات ثيابهن السوداء من الخزن.

فإذا ما ذهبن إلى الخزن نظرنَ إلى أعلى نحو سقف الغرفة كي لا يرين أنفسهن عاريات، إذ يمكن في أي غرفة من غرف الدار أن يحصل شيء ما يسمّى عاراً أو قلة حياء. وليس على الشخص إلا أن ينظر عارياً في المرآة أو يفكر وهو يلفّ جوربه على ساقه أنه يمسّ جلده. الإنسان في ثيابه إنسان، وهو من دونها ليس بإنسان.. كل هذه المساحة الكبيرة من الجلد.

إنهن يكتسين السواد من أحذيتهن إلى أهداب إيشارباتهن الهزيلة هافّات في ثنايا الثياب يمنة ويسرة.

أما بناتهن فلفعن أنفسهن بهذا الرداء في الظاهر لا غير. وفي حركاتهن تدور لفّات أقمشة الأثواب الصوابية، وتبدو أجسامهن كأنها كبيرة على الأثواب رغم النحافة، كأنها خارج الدرزات. إلا أن عقولهن مكسوة بهذه الأثواب.

ويمشين في أثوابهن الضيقة خبباً بسيقانٍ عارية في إذعانٍ وَجِل بحذاء التنانير الظليلة المهفهفة مرتديات كذلك أحذية سوداء وجوارب سوداء لكنها شفافة، وثياباً سوداء.

ويحملن في أيديهن تلك الحقائب اللماعة السوداء الكبيرة ذات الزوايا التي تتأرجح في صلابة وتبدو كما لو كانت من القصدير.

وهذه الحقائب خاوية، إذ لا يزيد ما فيها أبداً على منديل ومسبحة، والعملة ترن في قعرها رناً.

وهن لا يدرين كيف يجب حمل هذه الحقائب، فحملها لا علاقة له لا بالقبض على عصي المكانس والمعازق وسكاكين المطبخ، ولا بما يقبضن من الأشياء التي يربين بها أطفالهن ودوابهن. فهن يحملنها بضع خطوات في اليد ليتركنها تنزلق إلى عطفة الذراع المثنية، فتتدلى منها كأنها كلاليب حادة لاطمة في المسير مقعداتهن المسطحة، فيأخذنها مرة أخرى في اليد لتحتكّ بأفخاذهن أثناء المشي.

أدارت البنات إيشارباتهن السوداء على رؤوسهن رغم الحر الشديد الضاغط لأن الشعر إما أشقر أو أسود، وهو في الحالة الثانية مع ذلك ليس أسود بما يكفي للبكاء به.

ويغزون الدار التي يعيش فيها الحارس الليلي كسرب من الطيور السوداء محطّمات بأقدامهن الفناء بهذا الحصار الصامت المتعقل، ويمررن بباب المطبخ الصيفي مشاهدات ما بقي من الحبل معلقاً بالعارضة الخشبية.

ويوسّعن عيونهن الكبيرة الباردة كعيون السمك حاملات الرعشة إلى غرفة مضاءة بالشموع اكتظت بالأزهار البلاستيكية ورائحة الجثمان، يقف فيها الشيطان هامداً خلف الباب في مرآة شُنقت بمريلات سود صوابيّة لكي تلج صلوات الأحياء وأرواح الأموات السماء. وتقطّر الأمهات والبنات الماء المقدس في التابوت بفرع من نبتة العناقية، فيتسرب الماء من خلال الحجاب ليسيل من

وجنة الميت إلى عنقه الرضيض، فيستحيل الوجه أخضرَ مصفراً متجهَماً.

وتجول أثناء التقطير أعينهن باحثةً عن كرسي. وترخي الأمهات أثناء الجلوس من ثنايا التنانير، وتريح البنات الحقائب ذات الزوايا على الأفخاذ، وتلف الأمهات على عُجَر أيديهن الزرقاء المسابح التي ترن كالصحون والأواني، وتجسّ البنات حلقات أعينهن بالمناديل مسترغمات الدموع على وجوههن. أما الرجال فيمكثون في الفناء صاعدين هابطين يسردون القصص أمام باب المطبخ وبين أسراب الذباب الحائمة فوق رؤوسهم عن العمل في الحقل وعن النبيذ في الحانات.

وما تزال في الفناء الخلفي خلف السياج السلكي آثار الدجاج وليالي المطبخ الصيفي ومعها الدروب التائهة في الرمل. وما تزال النظرات حائمة في الهواء، مضطربة من الرعدة كأغمار القش، من الحمّى في الرئتين اللتين أتى عليهما السرطان، من وجه الموت الذي لا ينفك يهبط من شجرة المشمش صامتاً رشيقاً كقطة. وفي كل مرة يظهر بغتة صامتاً لئيماً نتنَ الرائحة.

تتمايل الأزهار فوق القطط المتلويّة الصائحة وسط حوض الأزهار، التي تعبّ في بطونها جمراً، آنة إذا ما رُشقت النويات في بطونها، ممتلئة الفكين رملاً لكثرة ما تصيح.

وأُهرعت الدجاجات من نومها على شجرة التوت لترفرف برهةً في الهواء هاوية إلى الأرض ككومة فرو، وتهيم آخرَ المطاف

في دوائر محورية على الرمل تضيق شيئاً فشيئاً حتى لا تلامس إلا نقطة واحدة، وهكذا تثقل حتى لا تعود أرجلها تحملها.

عندها تخرّ حانية رقابها فاغرة مناقيرها لتغرق في الظلام، والقمر يهوي ويهوي.

ويقفز قمل الدجاج من مسامات جلدها زاحفا في صفوف مستوية عبر الحدائق إلى أفنية أخرى.. إلى لحم حي ساخن. وتأتي الأمهات والبنات من الغرفة إلى الفناء. ويمضي الرجال إلى الشارع متقدمين زوجاً زوجاً، وتمضي النسوة خلفهم زوجاً زوجاً متشابكات الأيادي.

وتتلألأ آلات النفخ الموسيقية الكبيرة تحت أشعة الشمس.

وتتكسر الموسيقى على جدران المنازل لتعود مارة فوق القرية ثانية من آخر الشارع.

ويضرب الحوذي الأسود جياده السوداء بالسوط معتلياً عربة نقل الجثمان المنحوتة السوداء، وأرجل الجياد تعجّ بالذباب، فتسير أمامه وقفاها يقابل وجهه، تاركة بولها يسيل على التراب، متوجّلة من صخب الموسيقى، خالطة بين حوافرها في اضطرابها.

ويمر القس بالكنيسة مقعقعاً بالمِبخرة، إذ إن بعض الموتى الذين لا ينتظرون محتسبين إلى أن يقبض الله أرواحهم وينعم عليهم بالموت لا يُدخلون الكنيسة. وينحنح القس رضاً.

وفي المقبرة يحلّق سرب من الغربان السود فوق صليب المرمر الأبيض الكبير المتسامق عن المقبرة، وتنطلق العصافير من البرقوق

البري الذي يزحم حافة الطريق هادرة إلى الحقل.

وينشد القس أمام القبر جاعلاً غولاً أبيض ضخماً من البخور يطير في الهواء. ويقذف أول قطعة تراب كبيرة على التابوت، فتلتقط كل الطيور السوداء قطع تراب كأنها استجابت لإشارة وترمي بها على المصراع متسعة العيون في ذلك، راسمة إشارة الصليب. ويدس حفارو القبور زجاجة الشنبص في جيب السترة ليبصقوا في أيديهم ويتناولوا المجارف مكدسين تلة تراب رطبة. وتنبثّ أسراب الطيور السوداء في القرية منسلة خلال فتحات الأسيجة والدور. وتبقى الشوارع مهجورة. وتغيب الشمس في حقل الذرة بوجه أحمر ضبابي.

كانت جدتي تنظر في الفقاعات التي تنشأ على الأرصفة إذا ما هطل المطر، فتعرف حينها كم سيدوم.

وكانت تتنبأ بالمطر، فقد كانت ترى على البقرات متى ستمطر السماء، وكذلك على الجياد وعلى الذباب وعلى النمل. قالت: رياح اليوم رياح مطر. وإذ بالسماء تمطر في اليوم التالي. وأخرجت جدتي يدها إلى المطر وظلت واقفة هكذا إلى أن تقاطرت خيوط الماء عند مرفقيها. حتى إذا ما ابتلّت يداها خرجت هي كذلك إلى المطر.

وكانت إذا هطل المطر تبحث عن عمل ما تقوم به في الفناء لتبتلّ حتى الجلد. وكانت هذه من تلك الأيام القليلة التي كانت تخرج فيها بلا إيشارب، والتي كنت أرى فيها جديلتها المطَبّقة السميكة

تنضح ماءً كثيراً تنوء بحمله حتى تقع على جانبها وقد ابتل شعرها كذلك حتى الجلد.

تطايرت من الحدائق رائحة نباتات برية على وجهي لتحطّ بمرارة على حنكي وتلزق على لساني حين أتنفس. وانحنت أوراق الشجيرات، فتقاطر منها ماء المطر.

ارتديتُ ثوباً من الهواء الرطب. وكنت قد وجدت زوجاً من الأحذية الكبيرة بجانب الباب. وقد كانت لأبي كما كان كلّ شيء في هذه الدار يعود لأحد ما، ولا سيما الثياب والأحذية والأسرة. لم تُتبادَل في أيّ أمسية من تلك الأمسيات الغرف أو الأسرة، أو في أيّ ظهيرة أماكن الجلوس إلى المائدة، لم يَتبادل في أيٍّ صباح أبي وجدي ثيابهما. وكنت أنا فقط أمشي أحياناً في أرجاء الدار بشبشب اللباد المبتذل حين تكون أمي في العمل، أو بأحذية أبي الزفرة، أو بطرحات جدتي التي تفوح منها رائحة النفتالين.

راح علجوم ينطنط على الرصيف، وكان له جلد مترهل هائل الحجم لم تَعَف منه التجاعيد موضعاً. فعبر الطريق متسللاً إلى الفراولة. وكان جلده مفرطاً في الترهل حتى لم يَصدر حفيف من أي ورقة.

أخذتُ أرجف برداً عند العقبين وربلتي الساقين.

وقص البرد عظم وجنتي قصاً، وكانت أسناني باردة، وجعلتُ أرجف عند المقلتين. وآلمني الشعر على رأسي، وقد شعرتُ كيف ضربتْ جذوره عميقاً فيه. وكان منقّعاً حتى الجلد أو ربما بارداً فقط،

لكن ذلك كان الشيء ذاته. وكان مهندماً يداهم الليلُ أطرافَه فيتكّسر جراء طوله وثقله.

احتجزتُ الليل في الفناء. وكان الباب من الداخل دافئاً جافاً، وراق ملمس الخشب ليدي، فمسحتُ عليه مرات عدة ثم ذُهلت عندما لاحظت أني كنت أمسح على باب. ووضعتُ قدميّ بجانب بعضهما بعضاً ثم نزلت بجوربيّ من حذاء أبي إلى ألواح أرض الممر العارية ليسبقني كاحلاي متوجهين نحو المطبخ. وفتحتُ باب المطبخ ولم أزل أرجف برهة، فسألتُ أمي إن كان الجو بارداً في الخارج.. إن كان الجو ثانية بارداً في الخارج. وأكدتُ على كلمة ثانية، فقلت لنفسي إن الجو باردٌ في الخارج، لكنه ليس بارداً ثانية، فالبرد مختلف في كل يوم، إنه مختلف دائماً، كلُّ يوم برد جديد مليء بالصقيع. لكن الجو لم يكن بارداً، بل كان رطباً فحسب. وقالت: لقد خفتِ مرة أخرى.

كانت أمي وأبي قد تناولا عشاءهما.

وكانت جدتي وجدي قد أويا إلى غرفتهما والمذياع يُسمع من خلال الحائط.

وكانت الصحون على الطاولة في المطبخ وفيها كَرنب مخمّر ونقانق مدخنة، وعلى المائدة جلود ظلفة وفتات خبز، وقد دفع أبي كرسيه بعيداً من المائدة نحو الحائط مستنداً إليه، وراح ينكش أسنانه بعود ثقاب.

كانت تلك هي الأمسيات التي يسمح لي فيها بأن أمشّط شعر

أبي. وكان شعره كثيفاً أستطيع أن أغمر يدي فيه حتى الرسغ. وكانت الشعرات تالفة ثقيلة، وربما انسلت إحداها إلى جلدي فتصيبني برعدة وقشعريرة.

جعلتُ أبحث عن الشعرات البيض، وكان مسموحاً لي أن أنتزعها من رأس أبي، لكن لم يكن منها إلا القليل، بل إنني أحياناً لم أجد أيّ واحدة.

وكان يسمح لي أن أفَرُق شعر أبي، وأربط فيه الشرائط، وأشبك فيه مشابك سلكية بقرب شديد من جلدة رأسه. وكان يسمح لي أن ألّف إيشاربات على رأسه، وأن أعلّق عليه الطراح والعقود.

إلا أن أصيب وجهه بيدي، فلم يكن ذلك مسموحاً.

فإن فعلتُه مع ذلك.. فإن حصل ذلك خطأ، ألقى أبي عنه الشرائط والمشابك والطراح والعقود دافعاً بي عنه بمرفقه صائحاً: هيا من هنا. فأسقط في كل مرة أرضا وأجهش بالبكاء

أعضّ المشط بأسناني من لوعتي، وأعرف في هذه اللحظة أني لم يكن لي والدان، وأن هذين كليهما ليسا بأحد عندي، وأسأل نفسي: لَم كنت أجلس معهم هاهنا في هذا البيت وفي ذاك المطبخ، ولم كنت أعرف طناجرهم وعاداتهم، ولماذا لم أفعلها أخيراً وأفر من هنا إلى قرية أخرى، إلى أناس غرباء فلا أمكث في كل بيت إلا طرفة عين، ثم أتابع المسير قبل أن يسوء الناس؟!

ولم ينطق أبي بكلمة. كان علي أن أدرك إدراكاً جازماً قاطعاً أنه لم يكن بمقدوره احتمال يد في وجهه: هذا فيه هلاكي.

وتمنيتُ له أن تنمو ذراع من أنفه أو من خده لا تبرح وجهه ولا يستطيع دفعها عنه. أوَلَمْ يُصبْ هو وجهه بيديه وهو يغسله، وقد كانتا حينها يديه هو، وكان في وجهه من الرغوة والصابون ما يفوق الأيدي؟! وتأجج الغضب في وجنة أبي وفي ذقنه.

وقالت أمي: كان سيسره أن يلعب معك، لكنك تأبين دائماً إلا أن تخربي كل شيء، ثم هيا امسكي أخيراً عن البكاء.

وأردت أن أقول شيئاً، لكن لساني سد عليّ فمي سداً حتى لم أخرج كلمة واحدة.

ونظرت إلى يديّ فوجدتهما جاثمتين أمامي على رف النافذة في همود تام وكأنهما قد قُطعتا. وكانت أظافري وسخة من جديد. وشممتُ يدي فلم أتمكن من تحديد الرائحة. لم يكن للوسخ رائحة، ولم يكن لجلدي كذلك رائحة.

أخذت أحرّك أصابعي كما لو كانت شديدة البرودة، فهمّتْ أن تقعَ إلى الأرض، غير أني بقيتُ جالسةً على الكرسي منتصبة كالشمعة.

كانت الشريطة الحمراء قابعة بجانب رجل الطاولة، فرفعتُها واضعة إياها على رف النافذة، ثم لم ألبث أن تناولتها ثانية داهسةً إياها بقبضتي. فلما بسطتُ كفيّ وجدت راحتيّ متجعّدتين كلَّ التجعد ترشحان عرقاً، والشريطة ملتوية مبللة. ونظفتُ أظافري بمشبك سلكي فرأيت كم كانت مسطحة عريضة.

كان أبي جالساً خلف جريدته ينسل في الحروف انسلالاً،

ومذياع جدي خلف الجدار يتكلم عن آدناور، وأمي تجلس خلف قطعة قماش، والإبرة تعلو وتهبط بين جبينها وركبتيها. أمي وأبي يقلّان ثانية من الحديث، ومن هذا القليل تارة أخرى الكثيرُ عن البقرة والنقود. كانا يعملان في النهار فلا يريان بعضهما، وينامان في الليل ظَهراً إلى ظهر لا ينظر أحدهما إلى الآخر.

كانت أمي تحيك ستارة حائطية. وكان في الستارة الأخرى فوق الموقد الاقتصادي بقع صدأ من سلك الغسيل، كما كانت رقيقة. ولم يكن للمرأة فوق الموقد سوى عين واحدة، أما عينها الأخرى وجزء من أنفها فيبقيان في الغسالة، وكانت تحمل في يديها طستا وملعقة طهي، ولها زهرة معلقة في شعرها.

وكانت تنتعل الكعب العالي، الأمر الذي أثار إعجابي بشدة، وتحت حذاءيها المقولة الآتية: *أيها الرجل العزيز، إني أنصحك أن تتجنب الحانة والخمرة والجعة، وكن عند العشاء دائماً في دارك، وأَحِبّ امرأتك، وإلا فلا أمل لك.*

كان لأمي الكثير من الستائر الحائطية في الدار، وكان على إحداها في المطبخ فوق الطاولة تفاح وإجاص وإلى ذلك زجاجة نبيذ ودجاجة مقلية بلا رأس، وأسفل ذلك هذا السطر: *اللقمة الهنية تجعل العيشة هنية.*

وقد أعجبتْ هذه المقولةُ كلَّ من في الدار، وكان على أمي أن تكتبها لكثير ممن دخلوا الدار على قطع من ورق الجرائد لأنهم أرادوا تطريز ستائرهم بها كذلك.

قالت أمي إن الستائر الحائطية جميلة بهية، وهي إلى ذلك تعلم الكثير.

لم تكن أمي تخيط إلا مساء وقد نُظِّفت الدار وأمسى الفناء بارداً كثيف الظلام بحيث لا يتسنى الخروج فيه.

وكانت أمي طيلة اليوم لا تفرغ للخياطة وتعيد وتكرر كلَّ يوم أنّها لا تجدُ نهايةً أبداً لهذا العمل الطويل. أما الخياطةُ فلم تكن عملاً، ولذلك كانت تخيط في المساء.

كان الجِدّ والكدّ لا يعتقان أمي، ومع ذلك لم تلقَ مدحاً من أهل القرية لهذه المثابرة. وإنما كان كل حديثهم عن الجارة، وأنها عديمة القيمة، وأنها تقرأ الكتب في وضح النهار، وأن حالة منزلها مقلوبة رأساً على عقب، وأن زوجها هو الآخر ما عاد يَفْضُلُها في القيمة لأنه يصبر على ذلك كلّه.

تتجول نظرات أمي بين الدلو حيناً وأرض الغرفة حيناً آخر.

وهي تمسح كل سبت الممر جاثية في كلِّ مرة ساعات طويلة.

ذات يوم ستجثو أمي في كومة الرمل وتغسل الدروب شبراً شبراً، وسيتجمع كل الرمل تحت أظافرها ليجف من جديد منساباً إلى بعضه. بهذا الرمل حَلِمت أمي في إحدى الليالي، وفي الصباح روت الحلم مكهكهة، لكن صوره بقيت جروحاً على جلدها.

كانت ألواح الأرض في الدار كلّها معطوبة من المسح اليومي. وقد فرّت سوسة الخشب بجلدها من الرطوبة إلى الأبواب وأسطح الطاولات ومقابض الأبواب. حتى في إطارات صور العائلة نخرت

أخاديد ذات سحالة، فتمسح أمي سحالة الخشب بمكنسة جديدة.

وكانت تشتري جميع مكانسها من صانع المكانس هاينريش. وكانت عصي المكانس خشنة، مزفرة ببقع الدهن، ملصقة بالسكر المحروق. وكانت زوجة صانع المكانس تعد الكعك كل يوم، يوماً فطائر ويوماً حلزونات سكرية، فتفوح رائحة الخميرة من العجينة حتى بعد أن ينضج الكعك.

كانت الدار ممتلئة خميرة وسكّراً مبعثراً، وقد قبعتْ على الموقد الاقتصادي طنجرة صغيرة فيها حليب وخميرة منقوعة، وأنشأ الحليب عند الحافة فقاعة داكنة كبيرة بدت كعين ذات نظرة ممتعضة.

وكان لزوجة صانع المكانس سبعُ قطط في الدار، ولم يكن لها أسماء، إلا أن كل واحدة منها كانت تعرف مَنِ الأخرى كما كان صانع المكانس وزوجته يعرفان ذلك أيضاً.

وكانت صغراها سناً تنام في سلة البيض، ولم يحدث إلى الآن أن كسرت بيضة واحدة.

أما كبراها فكانت تنام أسفلاً على تقاطع الطاولة متدلية البطن على جانبي اللوح. وكانت تشخر، فيقول صانع المكانس كل مرة إن هذا من تداعيات الشيخوخة. فإذا سُئل كم عمرها إذن، قال: كثير، ثم أعرض عن النظر في وجه السائل باحثاً عن عمل يستدعي الانحناء، يقف خلاله منخفض الرأس، مرتفع المؤخرة، واضعاً يديه على الأرض أسفل ركبتيه.

لقد غرقت صغيرات القطة التي أقبلت على الدنيا في الشتاء في قدر غالية الماء، أما تلك التي أقبلت في الصيف ففي قدر باردة الماء، لتُطمر في الشتاء وفي الصيف وسط كومة القذارة.

أتى ليلاً حفيفٌ من الحديقة، فانصرفَ صانعُ المكانس عن نومه خارجاً إلى المطبخ يروح ويغدو على طول السجادة.

وجعل في الصباح التالي يقصّ بمنجله سُوْق الأهداب ليحزمها حُزَماً، فيقص حيناً ويشرب حيناً. عند المساء راح ينظر في الفراغ حيناً ويشرب حيناً، ثم ينظر في الفراغ حينا ويشرب حيناً، ثم يشرب حيناً، وبقيَ في الحديقة وقتاً طويلاً بعد أن رقدتْ جميع الأهداب محزومة على الأرض. كان يحمل زجاجة الشنبص دائماً في سترته، وحتى العرق والبول الذي كان يطرطشه في الحديقة فاحت منه رائحة الشنبص.

كانت عيناه تنزلقان منه حيثما كان وتهيمان أحياناً على وجهه رطبتين شاحبتين باردتين، والريح تداعب قميصه المبلول بالعرق من الداخل.

كانت الحديقة بما كان فيها من الفراغ كانحدار كبير. وما عاد حذاءا صانع المكانس يجدان طريقهما خارج هذه الهوة، وجعلت ركبتاه تصطكان في المشي، وتخالطت ساقاه تريدان السير فوق بعض.

رأى أمامه أحذية كثيرة لم يكن له بها أي علاقة، وراح يمشي عليها بحذاءين لم تزد علاقته بهما عن تلك شيئاً. فلم يكن أيٌّ من

هذه الأحذية الكثيرة حذاءَه، ولم تكن أي من تلك الأرجل رجليه.

تنام القطط الآن وتخرخر وتأكل في الدار. وعندما تأتي من الفناء تمر فوق العتبة مشتتة الفراء مشدودة الأرجل، فتنفش وبرها إلى أن يجد شيء من الدفء طريقه إلى أبدانها.

وفي المساء تجلس متحلّقة حول رجلي البقرة الخلفيتين مراقبة يدي زوج صانع المكانس في الحلب، متعجرة الأحشاء، عاضّة على ألسنتها في نفاد صبر.

وتظل نواظرها موجهة في ثباتٍ نحو الأصابع الحالبة، والضرع يزّ حليباً أبيض، فتستقرّ أعينها رائقة كعيون الحمام. وتحجز زوجة صانع المكانس الدلو بين رجليها عاضّة على شفتها السفلى، قاسية الفم رفيعته كخط، منتفخة العِرق عند جذر الأنف، دافعة جبهتها في بطن البقرة. أما البقرة فتعلف غامرة رأسها في المِذْوَد، هازة أحياناً ذيلها الملوث بالروث في دورة ضئيلة، وأرجلها منتصبة هامدة في القش.

وتزيح زوجة صانع المكانس مقعد الحلب عنها رافعة الدلو عالياً لتدع الحليب يجري من فمه مزبداً في طست كبير، ثم تُقطّع شريحة من الخبز فتغمر قطعاً كبيرة في الحليب.

وتضع الطست على الأرض، فتقفز القطط من فوق ذراعها متزاحمة على حافته، آنّة من الشره، وتطول ألسنتها وتحمر. أما القطط الضعيفة فتقف خارج الدائرة محملقة من الخلف كأن ذلك كفيل بإسكات جوعها.

وفي ليالي الشتاء ترتقي القطط الدرجَ من الطابق الأرضي إلى تحت السقف تسبقها أعينها المضيئة، فتشمشم في صناديق الدقيق، وتتمشى في حجرات تدخين اللحم مكِبّة على قطع الشحم المدخَن، لاعقة أطرافها المالحة. فإذا أمست في أسفل الدار كانت أُهُبُ الحشرات الكيتينية وأغلفة الزبابير عالقة بشواربها، ويكون في آذانها دهن قذر، فتُلَطِّخُ الجدران التي أُوقفت إليها المكانس دقيقاً وسِناجاً.

كانت المكانس الجاهزة تُسند دوماً إلى جدار الممر وعصيُّها إلى الأسفل، فتسير القطط بينها، حتى إذا ما سقطت مكنسة دقت الأرض مثيرة غيمة من الغبار، وإذا بالقطة تقفز في وثبة واحدة من فوق باب الحديقة.

كانت أمي تشتري في كل شهر واحدة من هذه المكانس المسنودة، ولطالما انبعثت منها رائحة الفطائر وشَنَبْص الخوخ، ولطالما امتلأت غباراً وعناكب صغيرة.

وكانت أمي تمضي بعد أن تعبر باب الزقاق بالمكنسة التي اشترتها مباشرة نحو أنبوب البئر، فتصبّ عليها ماء غزيراً ليسيل الماء صافياً إليها ثم يجري منها وسخاً إلى الفناء.

جعلتْ أمي تدقّ المكنسة على السياج وصفائحُ الخشب تصدر صريفاً، وبذور لامعة صغيرة تتساقط من بين أهدابها على الرِصاف متدحرجة لبرهة على بعض الحجارة، فإذا توقفت لم تَعدْ تُرى، ولم تَعد تلمع.

وتكنس أمي بمكنستها الجديدة الجدران أولاً.

ولأمي مكنسة للغرفة، واحدة للمطبخ، وواحدة للفناء الأمامي،وواحدة للفناء الخلفي، وواحدة لحظيرة البقر، وواحدة لحظيرة الخنازير، وواحدة لقنّ الدجاج، وواحدة لحجرة الخشب، وواحدة للهُريّ. وعندها كذلك مكنسة لأرض الدار، وواحدة لحجرة تدخين اللحم، واثنتان للزقاق، وواحدة للرِصَاف وأخرى للعشب.

وعند أمي الكثير من مكانس الصيف للأوراق المتساقطة على الأرض، ولديها الكثير من مكانس الشتاء للثلج الذي يُغطّي الفناء والشوارع. ولكلّ هذه المكانس عِصِيّ طويلةٌ. ولدى أمي الكثير من المكانس ذات العصي القصيرة. ولديها مكنسة لِفُتاتِ الخبز في درج الطاولة، ومكنسة لقرع السجاد على رفّ الشّباك، ومكنسة لملاءات الأسرة بين سريري الزوجية، ومكنسة للثياب في الصندوق، ومكنسة على الصندوق لنفض الغبار عن الأثاث.

وتحافظ أمي على الدار كلّها نظيفة بمكانسها، فتكنس الغبار عن صندوقِ ساعةِ الحائط، وتفتح باب الساعة كانسةً ورقةَ الأرقام كذلك، وتكنس إبريق الماء والشمعداناتِ، ومظلّةَ المصباح، وعُلبَ النظارات، وبأصغر مكنسة علبَ الدواء. كما تكنس أمي أزرار المذياع، وأغلفةَ كتبِ الصلاة، وصورَ العائلة.

وتكنس أمي الجدران بمكنستها الجديدة ذاتِ العصا الطويلة. وتجتثُّ أحشاءَ العناكب التي تهرب إلى الجهة السفلية من قطع

الأثاث لتجدها أمي هناك أيضاً، فتستلقي على بطنها داهسة إياها بإبهامها دهساً.

تُعلّق أمي ستارةَ حائطٍ جديدةً. ساعة الصباح في فمها ذهب. ومن فوق المقولة يُرى عصفورٌ من صوف أخضرَ فاغرُ المنقار بشدة. وأنا أعرف هذا الطائر مذ تعلمت الرؤية. أما سماعه فلم يكن إلا في وقت لاحق جداً. وهو لا يغني إلا إذا خلت الغرفة. فإذا أتى أحدٌ توقف عن الغناء، لكنّ منقاره يبقى منفغراً بشدة حتى وهو لا يغني.

غير أنه أغلق منقاره ذاتَ مرة، فعدوت مسرعة منادية جدتي كي تحضر. لكنّ منقارَهُ كان منفغراً بشدة ثانية عندما وقفت معها بجانب السرير. وقد غمزَ الطير بعين واحدة. أما هذا فلم أُطْلِعْ عليه جدتي، إذ كانت سلفاً شديدةَ الغضبِ لأنّني اختَلْتُ عليها إذ احضرتها من الفناء الخلفي، وجرتني بيدها القاسية من شحمة أذني صائحة: سأقتلع أذنيك من رأسك.

تحلّ أمي مصراعي النافذة وتغسلهما في حوض معدني كبير. وهما من النظافة بحيث تُرى القرية كلّها فيهما كما لو في مرآة ماء، ويبدوان كما لو كانا من ماء. حتى القرية تبدو كما لو كانت من ماء. وسيصاب بالدوار من يطيل النظر إلى القرية في هذا الزجاج.

كلُّ شيء نظيفٌ. وتعتّم أمي الغرف ثم الغرف الأمامية. الدارُ كلّها غيرُ مأهولة ومظلمة. حتى الذباب يئز مضطرباً عبرَ آخر باب مفتوح. ثم تغلق أمي هذا البابَ أيضاً لتقف لحظة في الفناء كمن

أُوصدت من دونه الأبواب، وتعميها الشمس الساطعة برهة، فتجعل يدها أمام عينيها كمظلة القلنسوة.

وتسمع أمي شيئاً يسقسق في مجرى السقف. فإذا بالعصافير قد بنت لنفسها عشّاً هناك. وتعود الرؤية إلى أمي، فلا تلبث أن تذهب إلى الفناء الخلفي محضرة السلم الطويل.

العش صغير هشّ، ويعلق بمكنستها ليسقط أرضاً، فتهوي صيحات في جلد رمادي مجعّد إلى الرِصاف، والهرة جالسة هناك على أرجلها الخلفية وذيلُها مبسوطٌ خلفها في هدوء واستقامة. وما زالت فراخ العصفور تصيء في حلقها، وما زالت تقاوم في مريئها. وتنظر الهرة الآن إلى الشمس في انشراح.

ما تزال أمي واقفةً على السلم الطويل وقد عَرُض أخمصا قدميها من ضغط الدرجات، ووقفتْ بهما فوقي داهسة وجهي، منتصبة على عينيّ، مغيرة إياهما في رأسي، دافعة بؤبؤ عينيّ داخل بياضهما، وعلى أخمصي قدميها بقع زرقاء داكنة من التوت.

وترمقني عن طرفٍ ونصفُ وجهها كبير بارد كالقمر المنتصف، وليس لها بعد سوى نصف الوجه هذا، والعين فيه ضيقة كشق. وجعل السلم يهتز وأمي تتأرجح فوق القرية، وصار بمقدورها أن تلمس بيديها الموتى القاطنين في السماء.

الجو فوق القرية حارٌّ خال من الطير وقد تقدم العصر.

وصرّت بوابةُ الزقاق فيدخل منها أبي. لقد عاد أبي وبمقدوره اليوم أن يسير متزناً، وهو ليس ثملاً.

ويدقّ قلبي من الفرح وأنا أرقب المساء، وفي الفرح خوف كذلك. قلبي يدقّ من الخوف في الفرح.. من الخوف ألا أعود قادرة على الفرح.. من الخوف أن الخوف والفرح هما الشيء ذاته.

وحاولت أن أتناول طعام العشاء، فلم تنطبق أسناني على بعضها، وكان للريق في فمي طعم كما لو لم يكن ريقي. حتى الماء الذي أردت شربه ظل عالقاً في حلقي.

قد يصير هذا المساء واحداً من تلك الأمسيات الهادئة القليلة. وقد يُسمَح لي أن أُمشِّط شعر أبي ثانيةً، وقد أجد شعرةً شيباء فأنتزعها إذن من جذرها.

وقد أربطُ لأبي شَريطةً حمراءَ في شعره، على أنّي اليوم لن أمسّ صدغه. لن أصيب وجهه بيدي أبداً، ففي ذلك هلاكه.

وقعت جدتي مرة أخرى على رِصاف البئر. ولم ترتفع أسماقها حينئذ إلى أسفل ذراعيها، وما أطول ما ضحكتُ. وقد عرفتُ كذلك أنها لم تقع بهذا العنف من الرصاف بل من ضحكي.

وصار لجدتي حينئذ ذراعٌ من الجبس حملتها صيفاً كاملاً، واشرأبّت يدها.. يد حقيقية.. من طرف ذراع الجبس. وكانت ذراع جدتي الجبسية هذه رائعة الجمال ناصعة البياض تبدو ذات عزم. وقد قلتُ لجدتي مرة أنها تلائمها. فما كان إلا أن ثار غضبها وقذفت بابوجها نحوي، فلم تصبني، لكني أجهشت بالبكاء.

ومع مرور الوقت اتسخت ذراع جدتي الجبسية. وكان طبيب المدينة الذي صنع لها هذه الذراع ذا وجه مكتنز شديد الشحوب،

فلما رأى ذراع الجبس على جدتي ازداد وجهه كبراً.

وقد كان على ذراعها الجبسية بعض اللطخ من روث البقر، وبعض الآثار الخضراء من نبات الطماطم، والكثير من بقع الخوخ الزرقاء، وبعض بقع الدهن. لقد كان على هذه الذراع صيف كامل، وكان لدى الطبيب فيما بدا شيء ضد هذا الصيف، فصنع لها ذراع جبس جديدة. غير أن الذراع الأولى كانت الأجمل. أما ذراع الجبس الجديدة هذه فلم تعجبني. فقد كانت رقراقة البياض وبدت جدتي فيها مُربَكة بعض الشيء.

كانت جدتي قد اصطحبتني معها في ذلك اليوم إلى المدينة.

فذهبنا برفقة ذراعها الجبسية إلى إحدى الحدائق. وهناك أعطتني خبزاً أبيض ولحم سلامي لآكل، والحمام يخطر رائحاً غادياً أمام مقعدنا غير خائف مني، ملتقطاً ما ألقي إليه من الخبز.

نفضت جدتي فتات الخبز عن المريلة لننتصب واقفتين، ثم حصلتُ على بوظة وردية كبيرة، غير أن جدتي أكدت لي ولم أشرع بعد في لعقها أني لا أستحق هذه البوظة، لأني لم أجلس على مقعدي بأدب في القطار. فقد أردت أن أقطف الخشخاش الأحمر من الحقل، وأردت لو يتوقف القطار، فالأمر ما كان سيطول أبداً، وكنت قادرة على قطف الأزهار بخفة. لكن القطار تابع المسير كبربري متجاوزاً جميع أزهار الخشخاش الحمراء.

وكنتُ كلما ذهبت مع جدي إلى الوادي لنجمع الرمل مرّ بالنهر قطار أجمل. وكنت أسمعه من بعيد يصدر أصواتاً إيقاعية جميلة،

وتلوح في نوافذه رؤوس. فما يكون مني إلا أن أقفز من الفرح عالياً في الهواء ملوحة بيدي. فترد الأيادي ملوحة من النوافذ. كانت بعيدة جداً، لكنها لم تزل تلّوح.

وكان أحياناً في النوافذ سيدات يرتدين ثياباً صيفية جميلة لم أرَ أوجههن بدقة أبداً، لكني كنت أعرف رغم ذلك أنهن جميلات كثيابهن، وأن هؤلاء السيدات لن يترجّلن من القطار في محطتنا أبداً، فهي صغيرة ضئيلة بالقياس إليهن، وقد كنّ أكثر جمالاً من أن يترجلن في هذه المحطة.

ولم أرد إرباكهن بتلويحي، فلربما كنّ حييات. وراحت يداي تثقلان وتثقلان ملوحتين لتسقطا على جانبي.

كنت أقف هناك بجانب القطار الهادر أنظر إلى عجلاته وفيّ شعور أن القطار يخرج من حلقي، وأنه لا يبالي بأن يمزّق أحشائي وأموت. فهو يقود سيداته الحسناوات إلى المدينة لأموت أنا هنا بجانب كومة من روث الخيل يئزّ الذباب فوقها.

ورحت أبحث عن رقعة عشب بلا حصى. فقد أردت أن أستلقي على ظهري كي لا يتخدّش وجهي. أردت أن أتبرّد في الظل وأكون مَيّتة جميلة.

وبلا ريب سيلبسونني أيضاً ثوباً جديداً جميلاً إذا ما متّ. كانت الظهيرة قد ارتفعت ولم يأت الموت بعد.

وأخذت أتصورهم يتساءلون كيف حدث أن متُّ بهذا الشكل المفاجئ. وستبكي أمي علي كثيراً، وسترى القرية كلّها

كم كانت سعيدة بي.

غير أنّ الموت لم يأت بعد.

أرسل علي الصيف عطرَ أزهاره الثقيل من العشب السابغ. وانسلت أزهار الأعشاب البرية تحت جلدي، فغدوت إلى النهر صابة الماء على ذراعيّ، وإذا بالشجيرات تنمو سامقة من جلدي، وإذا بي طبيعة سبخة بهية.

واستلقيت في العشب المرتفع لأدع نفسي تغور في الأرض. وانتظرت أن تأتيني أشجار الصفصاف الطويلة من فوق النهر، وأن تضرب أغصانها بي وتبثّ فيّ أوراقها. انتظرتُ أن تقول: أنت أجمل سبخة في العالم، ونحن جميعاً قادمون إليك، وسنُحضر معنا طيورنا المائية النحيلة الكبيرة، لكنها سترفرف فيك صائحة في جوفك. ولا يجوز لك أن تبكي، فعلى السبخات أن تتحلى برباطة الجأش، وعليك أن تتحملي كلّ شيء إذا ما انضممت إلينا.

وأردت أن أتّسع لكي يصير للطيور المائية بأجنحتها الكبيرة فسحة فيّ.. فسحة للطيران. أردت أن أحمل أبهى أزهار الآذريون، إذ إنها كذلك ثقيلة براقة.

كان جدي قد كوّم بالمجرفة جبلاً من الرمل على الضفّة. ورحتُ أجمع المحّارات المفتوحة، فأحملها إلى الماء شاربة منها وكانت بيضاء متلألئة، في حين كان الماء أصفرَ مليئاً تراباً أصفرَ وحيواناتٍ دقيقةً بدت كذلك كالتراب لكن جعلت تتخبط.

كان بين أسناني رمل رحتُ أعضُّ عليه فيحدث صريراً ويخدشني

بين اللسان والحنك. وعرفت مقدارَ الألمِ الذي يعانيه بلحُ البحر حين يموت.

وكان في سروالي رمل يحكّني أثناء المشي، وكان ذاتَ الألم الذي يلقاه بلحُ البحر حين يموت.

وخضتُ في الماء حتى غمرني إلى بطني، فتبلّل سروالي وانتفخ، وصار الماء جزءاً من بطني. وأجريتُ يدي من تحت مطاط السروال ماسحة عني الرمل.

وكان لديّ خلال ذلك انطباع أني أفعل شيئاً محرّما، إلا أن أحداً لم يكن يراني. كان جدي يتابع بعينيه رمله الذي جعل يهوي على الضفة من دون انقطاع. ولكن الرب في كل مكان. خطرت ببالي هذه الجملة التي كنت أسمعها باستمرار في دروس الديانة. وقد بحثتُ عن الرب في الأشجار فوجدته حينها بلحيته البيضاء الكبيرة مرتقياً فوق الأوراق، مرتقياً في الصيف.

كانت سبابة أم الرب مرفوعة دائماً كلما جلستُ قداماً في مقعد الأطفال، ولكنها كانت إلى ذلك تعبر عن وجه ودود، ولم أكن أخشاها. وكانت ترتدي دوماً ذاك الثوب السماوي الطويل ولها شفتان حمراوان جميلتان. وعندما قال القسّ إن أحمر الشفاه يصنع من دم البراغيث وغيرها من الحيوانات الكريهة سألتُ نفسي لِمَ كانت إذن أم الرب على المذبح الجانبي تلوّن شفتيها. وقد سألتُ القس أيضاً، فضربني عندئذ بالمسطرة على يدي حتى احمرتْ وأرسلني إثر ذلك فوراً إلى المنزل. ولم أستطع

إبان ذلك أن أثني أصابعي أياماً عدة.

ذهبتُ إلى خلف غمْر القش في الحديقة ملقية بنفسي على النّفل، ورفعت ناظري متأملة الصيف. لم تحجب سماءَ هذا اليوم الحار حتى غيمة واحدة، ولم أجد في هذا العالم الرحب الفسيح لحية الرب. لم يكن الرب في هذا اليوم في كلّ مكان.

ولم يزل جدي يستخرج الرملَ من النهر بالمجرفة، وسرواله الداخلي المرتعش الذي يبلغ ركبته ملتصق برجليه، مترائيا بين فخذيه كجليدات طيور الماء.

كان جدي ذا شعر كثيف كلَّ الكثافة على صدره ورجليه وعلى ذراعيه وعلى يديه، وكان له في الظهر صفحتا كتف مشعرتين.

كان شعر جدي مبلولاً ملتصقاً بجلده، فبدا كأنه قد لُعق. ولم يكن شعره بالبشع ولا بالجميل، وقلتُ لنفسي إن وجوده كان بالتالي كعدمه.

وكانت أصابع قدمي جدي سابغة شديدة الالتواء لكثرة ما كان فيها من عجرات ذات جلد قاس. وكنت أشعر بالارتياح إذا ما أبقاها تحت الماء.

فإذا ما رفع إحدى قدميه كي يلقي بالرمل على بعد أكبر من الضفة رأيت كم كانت قدمُه بيضاءَ منتقعةً كشيء ميت مبهم.

ترك جدي فجأة المجرفة تسقط من يده بخفة على الضفة لينتشلني بسرعة البرق من الماء. وإذا بحية سوداء نحيلة تتلوّى أمامه. كانت بالغة الطول نحيلة وجعلت تبعث بجسمها أمواجاً مبقية أثناء

السباحة رأسها المسطح المدبب فوق سطح الماء.

وكان لها جسم كأنّه غصن عائم على الماء، سوى أنه كان أشد ملاسة ولمعاناً بكثير.

أظن أنها كانت شديدة البرودة.

وسدّ جدي عليها الطريق بمجرفته ليعلّقها بالعصا قاذفاً بها إلى الضفة على رمله.

كانت جميلة مقززة ومميتة حتى خفت على حياتها ولم أستطع أن أتمنى لها الموت.

وفصل جدي بمجرفته رأسها عن جسدها. وما عدتُ أرغب دفعة واحدة في أن أكون سبخة، وكانت بشرتي جافة حين تحسستها هوناً بأناملي.

لم يزل جدي يستخرج الرمل من النهر بالمجرفة، والحصان يرعى العشب الطويل على طول سكة الحديد، وقد امتلأ رأسه وبطنه بكرات شوك لابدة.

وجعل المساءُ النهرَ يتراءى أكثرَ عمقاً، وضوءُ النهار ما يزال في الوادي. أما النهر فلم يلبث أن أعتم، والماء لم يلبث أن ثقل.

خرج جدي من النهر ليحمّل رمله على العربة.

وقاد حصانه إلى النهر تاركاً إياه يعبّ الماء.

حنى الحصان عنقه الطويلة كارعاً إلى جوفه من الماء ما جعلني أعجز عن تصور مدى عمق بطنه. لكني عرفت أنه قادر على شرب مطر كامل إذا عطش.

فشدّه جدي عندئذٍ أمام العربة لنمضي في الجبل صعوداً إلى القرية، والماء يرشح من ألواح العربة، فلم يزل في الرمل الكثير من ماء النهر. وبقيتْ وراءنا آثار العربة وآثار الماء وآثار الرمل وآثار الحصان.

أتت جدتي ومعها سلة الصفصاف من حديقة الأعشاب، وكانت قد وجدت طنجرة حساء تارة أخرى وسط الحديد القديم خلف أشجار البرقوق البري.

فحثتْ فيها التراب حتى امتلأتْ، وزرعت فيها نبتة غرنوق.

كانت غرانق جدتي باهتة المنظر كأزهار ورقية، ومع ذلك لم يكن ثمة شيء يفوق عندها الغرانق في طناجر الحساء جمالاً.

وكان لها لوح مملوء بالغرانق في الممر، ولوح مملوء بالغرانق جانب باب الممر على الدرجات، ولوح مملوء بالغرانق جانب باب الحديقة في الفناء.

وكان لها نافذة في الغرفة ونافذة في المطبخ مليئتان بالغرانق في طناجر الحساء. وكانت كومة الرمل بجانب حظيرة الخنازير مليئة بغرسات الغرنوق.

وقد امتلأتْ جميع العوارض في الدار طناجر حساء.

إن غرانق جدتي تزهر عمراً كاملاً.

أما جدي فلم يُضع يوماً كلمة عليها، ولم يلفظ في حياته كلّها كلمةَ الغرنوق. ولم يك يرى هذه الغرانق قبيحة ولا جميلة. بل كان وجودها عنده كعدمه، كما كان وجود الشعر على جلده عندي

كعدمه. بل لعله لم يرها على الإطلاق.

وعندما مات جدي حملتْ جدتي كل ما كانت جمعته من الغرانق إلى غرفته.

فأمسى جدي مسجى في غابة من الغرانق في طناجر الحساء. وكانت حينها كذلك كعدمها. والآن كذلك لم يُضع جدي كلمة واحدة عليها.

غير أن شيئاً تبدل بعد موته: لقد أقلعت جدتي عن إحضار مزيد من الغرنوق أو طناجر الحساء إلى الدار.

أما الغرانق وطناجر الحساء التي كانت جمعتها إلى حينها فما تزال بحوزتها إلى اليوم.

ثم إن غرانقها الآن قديمة أصلاً. بل إنها عتيقة، وهي تزهر عمراً كاملاً.

كنت مستيقظة، وجدي يهوي بالمطرقة من جديد، فأسمع كيف يتردد الطرق في الفناء. وقف كل شيء هنيهة رأساً على عقب ليعود ثانية ويخرّ فوق بعض. حتى الهواء أخذ يجلب، وسوق العشب جعلت تدوّي.

الآن هجرني النوم، وراحت جدتي تقرع في الغرفة المجاورة الدفء عن الأسرة، فينتثر الزغب في الهواء واقعاً في عينيها.

ثم حملت جدتي طنجرة الليل المملوءة إلى الفناء الخلفي مخلّفة وراءها سلسلة من القطرات في الغرفة، ثم في الغرفة الأمامية، ثم في الممر، ثم في الفناء. حتى إبهامها قد ابتل.

وكانت طنجرة الليل تقبع طول النهار تحت المقعد بين سريري الزوجية مغطاة بجريدة، فلم تكن تُرى، لكنها كانت تشم إذا ما ولج أحد الغرفة.

وكنتُ كل ليلة أسمع خرير بول الجدة في طنجرة الليل في الغرفة المجاورة. فإن لم يكن الخرير مستوياً تصحبه فواصل قصيرة عرفتُ أن الواقف على الطنجرة الآن هو جدي. وكانت جدتي تستيقظ كلّ ليلةٍ عند الثانية والنصف فتنسلّ في خفّ اللباد وتقعد على طنجرة الليل. فإن لم تستيقظ مرة من المرات عند الثانية والنصف لم تستيقظ من بعد حتى الصباح، وعرفتُ أنها غطّت في نومٍ عميق مضرٍّ وستقضي الأيام الثلاثة المقبلة طريحةَ الفراش.

وكانت لا يؤلمها أيُّ شيء أو يؤلمها كل شيء، وتغطّ من النوم في نصف النوم، ثم من نصف النوم في النوم. وفي اليوم الرابع تنهض لوقتها من السرير، وتقبل على أعمال المنزل إقبالاً، تعترك الطناجر حتى يتقدم العصر، ليهبط المساء عليها في ساعات الجلي أو الكنس أو الغسل.

وكان لدى جدتي أجمل نبتة خشخاش في القرية. وكانت تعلو السياج وتملؤه أزهاراً بيضاء ثقيلة. وإن هبت الريح تلاطمت السوق الطويلة، وسرت رعشة في الأزهار لكن لم تسقط ورقة واحدة على الأرض.

وكانت جدتي تحمل أوراق الأزهار العريضة الطويلة على أكفّ الراحة مستأصلةً كلّ خيط من الأعشاب الضارة من الحوض.

حتى إذا ما اصفرّتْ صَفار القشّ وجفّت، أخذت أكبر سكين من الدرج فقصتها جميعاً جاعلة إياها في سلة صفصاف كبيرة. ثم راحت الطناجر بعد ذلك تسقط منها حين تطبخ، وتتكسر الصحون في يدها، وتتهشم الكؤوس أمامها على الأرض، وتنتن رائحة مناشف الأواني ولا تعود تجفّ من يوم إلى آخر من كثرة المسح، وتحيد حزّات السكين، وتغفو القطط على الكراسي في المطبخ مخرخرة شاخرة. وراحت جدتي تروي من وراء إبرة الخياطة عن ثمار الخشخاش في طفولتها.

أمّ جدتي المعلّقة الآن في إطار فوق سرير جدتي أفرغت ذات مرة ثلاث ثمرات خشخاش في حلق جدتي دفعة واحدة. فتجرعت هذه البذور القاسية إلى جوفها لتغط في نوم عميق. وذهب الوالدان والتبعة إلى الحقل تاركينها نائمة في الدار ليجدوها حين عادوا في آخر المساء ما تزال في نومها.

وقد أُعطيت كذلك ذرق الغراب، وكان كَلِساً صلباً حاداً، طعمه كالجبس، تقرص كسره على اللسان قرصاً. أخو جدتي فرانتس الملتهب بكاءً دُسّ في فمه ذاتَ يوم كسرة كبيرة جداً من ذرق الغراب، فلم يفق بعد ذلك أبداً. وقد تصلّب وامتلأ وجهه بقعاً زرقاء. وبما أنه ما عاد يريد بعد سوى النوم فقد طُمر في التراب بلا جنازة وبلا موسيقى، في تابوت أُعدّ في الدار من خشبٍ ظلف خشن من ألواح صندوق من صناديق المربى.

وقاده تابع الخيل على عربة اليد خارجا به إلى المقبرة، عبر غبار

الطرق، وعبر فراغ القرية. ولم يلحظ أحدٌ في القرية أن أحداً قد مات. حتى في الدار لم يلحظ أحد ذلك. فقد كان فيها ما يكفي من الغلمان ملء غرفة، وملء حجرة، وملء مقعد من حول الفرن. كانوا في الشتاء يسيرون فرادى في القرية ويتناوبون على المدرسة، إذ لم يكن في الدار من الأحذية ما يكفي جميع الأقدام. ولم يكن لأحد أن يستفقده أحد في الدار. فإذا لم يكن هذا حاضراً كان ذاك على أية حال من الحضور.

أما اليوم فلهم في البيوت طفلٌ واحدٌ لا غير، وهذا له سبعة أزواج من الأحذية، وما هذا الكلام. البيت خال، وهاهي الأحذية وضاءة لمّاعة نظيفة، لأن الطفل لا يجوز له بعد الآن أن يخوض في القذارة، وإن هطل المطر فهو يُرفع على الأذرع ويُحمل.

تتنحنح جدتي ثم لا تتحدث بعد بكلمة لساعات. وأحياناً تروح وتجيء في الدار مغنية *زرقاء كالترنشاه هي أعين النسوة عند البكاء أو البكا*. فتغنيها مرة بالبكاء ومرة بالبكا، وفي ذاكرتها المئات من الأحواض العاجّة بالخشخاش، وتذبُل على وجهها جميع الأزهار البيض التي عرفتها الحديقة يوماً وتتساقط على الأرض في مشيها. وينحدر نوى الخشخاش كلّه من تنانيرها الثقيلة ثقلاً يجعلها بالكاد تقوى على المسير من كلّ هذا الخشخاش.

أمي تبكي. وهي تتحدث أثناء البكاء تماماً بمقدار ما تبكي، تماماً بمقدار ما تتحدث، وأنفها يرشح دائماً رشحاً من ماء وثلج تمسحه بكمها.

أبي ثمل ثانية. وهو يدير التلفاز مبحلقاً في الشاشة الخالية، وليس هناك سوى تشويش من الداخل، ومن التشويش تُسمع موسيقى. وجه أبي يماثل في خلوه خلو الشاشة، وتقول أمي: أطفئ التلفاز. فما يزيد أبي عن أن يخفض الصوت تاركاً التشويش على حاله ليشرع في غناء أغنية، الأغنية عن *الرفاق الثلاثة الذين انطلقو خارجين إلى الدنيا*.

وعند خارجين يعلو صوت أبي كثيراً، ويشير بإصبعه عبر النافذة إلى الشارع، والرصاف مغطى بقذارة الوز. *أين مكثوا يا ترى، في هذه العالم الكبير الواسع*؟ ويزداد صوت أبي طراوة، لقد ذرته الرياح، *فما من أحد، ما من أحد يبقى إلى جانبهم*. رياح القرية ترتعش من فوق سُوق العشب وقذارة الوز. ووجه أبي وعيناه وفمه وأذناه كلّها اكتظت بأغنيته الغليظة هذه.

يعجّ المطبخ بالدخان، ومن طنجرة اللفت يتصاعد عَجَاج عَفِن نحو الغطاءِ مكتنفاً وجوهنا.

وننظر في الضباب الساخن الثقيل الضاغط على سطوح جماجمنا مشيحين وجوهنا عن وحدتنا، وعن أنفسنا، لا نطيق الآخرين ولا أنفسنا، والآخرون بجانبنا لا يطيقوننا كذلك.

أبي يغني، ويهبط وجهه إلى التقاطع الخشبي أسفل المائدة، اللعنة ثانية، نحن عائلة سعيدة، اللعنة ثانية، السعادة تتبخر في طنجرة اللفت، اللعنة ثانية، البخار ينهش رؤوسنا من حين إلى حين، السعادة تنهش رؤوسنا من حين إلى حين، اللعنة ثانية، السعادة تلتهم حياتنا التهاماً.

ويقع وجهي في خفي جدتي اللباديين المنفرجين، وهما مظلمان فيهما الطمأنينة السوداء الكبيرة التي لا حاجة للتنفس فيها، وهناك هو المكان الذي يمكن الاختناق فيه بالذات نفسها. تبكي أمي وتتكلم، وتتكلم أمي وتبكي، وتتكلم أمي باكية وتبكي متكلمة.

وتنشئ أمي جملاً طويلة في بكائها تأبى أن تتقطع، وقد كانت جميلة ما لم تمسّني. لكن فيها هذه الكلمات الثقيلة، فيأخذ أبي من جديد في الغناء لينتشل مغنياً السكين من الدرج، أكبر سكين، فينتابني الخوف من عينيه، وهذه السكين تمزق كلّ ما يخطر لي على بال.

فتتوقف أمي فجأة عن الكلام، وقد رفع أبي السكين مهدداً. وهو يغني ويهدد بالسكين، وأمي لا تزيد أن تنشج مسدودة الحلق نشجاً شديد الخفوت.

عندها تضع على المائدة وقد فُرشت صحناً أبيض آخر مردفة فيه ملعقة برفق بالغ حتى إنها لا تُسمع حين تلامس طرف الصحن.

وأخشى أن الطاولة ستخفس بنا أو أنّها ستنهار قبل أن نجلس إليها أو ونحن نأكل.

أتى جدي من الفناء الخلفي، والقذارة والعشب عالقة بحذائه، والمسامير ترنّ في جيب سترته.

ثياب جدي كلّها مليئة بالمسامير، حتى جيوب ثياب الأحد محشوّة بالمسامير. بل إن جدتي وجدت مرةً مسماراً في رداءِ نومه، فحنقت لذلك وملأت الدار صُراخاً.

وفي كل زاوية من زوايا الدار تقبع صناديق وعلب فيها مطارق ومسامير. وعندما يهوي جدي بالمطرقةِ يُسمع وَقعان دفعةً واحدةً، واحد من المطرقةِ وواحد من القريةِ. ويُرجِع الفناء كلّه بأرضه القاسية الحجرية الصوت، وتسقط الأسنان البيض الرقيقة من أزهار البابونج، وأشعرُ بالفناء يحطّ ثقلَه على أصابع قدمي رابضاً على قدمي ربضاً، ضارباً ركبتيّ في المشي ضرباً. لقد انمسخ هذا الفناء وصار قاسياً كبيراً متوحشاً. وإني لأتكلم بكلّ ما أوتيت من علو صوت، فيقتلع الطرق الجُمَل من وجهي اقتلاعاً.

يحب جدي الكلام عن مطارقه ومساميره، ويقول عن بعض الناس أنهم مسمّرون. ومسامير جدي جديدة حادة براقة، ومطارقُه فظّةٌ ثقيلةٌ صدئة، ولها عصي غليظة أيما غلظ.

أحياناً تكون القرية صندوقاً هائلاً من أسيجة وأسوار، فيدقّ جدي مساميره فيه.

وإن من يمضي إلى الشارع ليسمع الطرق يقع كأنما تطرق طيور نقار الخشب. ويلقي هذا الجدار بالصدى إلى ذاك، ويسير السائر متخبطاً بين الجدران. وإن الهواء ليرجف، والعشب ليرجف، والخوخ الأزرق ليزفر في أشجاره. والصيف في أوجه، وطيور نقار الخشب ترفرف في القرية. وما تزال يدا أمي في الكدح، وجدتي لديها خشخاشها تكاد لا تتحرك في الدار، وجدي يرعى البقرة ولديه مساميره، وأبي مازال فيه الثمل من أمس وسيشرب اليوم ثانية.

لم يتعلم فندل الكلام حتى الآن، وهو يُقذَف بالتراب وبالحجارة في الشوارع، ويُدفَع في برَك الطرق، ويُرمى في الحفرة حيث الوحل نتن الرائحة، ويكتب عليه أطفال المدرسة بالطباشير، ويُضطر إلى المشي عبر الشوارع مغطى الظهر بخطوط الطباشير، ويُلطخ وجهه بالحبر، ولا يُسمح له بالذهاب إلى المنزل إلا وقد بكى. وهم لا يدعونه وشأنه إلا وقد انقبض وجهه خوفاً وامتلأت رقبته يساريع وديدان أرض ويرقات.

واذا انفرد فندل مع نفسه يكلمها فإنه يتحدث بطلاقة. وأسمعه أحياناً في الفناء الخلفي، وكلانا جالس إلى السياج نفسه، هو في فنائه وأنا في فنائي، أنا آكل ثمار الخُبّاز التي يصير من يأكلها غبياً، وفندل يأكل مشمشاً أخضر يجلب عليه أحياناً حمّى قوية. فإذا شُفيَ عاد لأكل المشمش الأخضر محدّثاً نفسه. وسألتُ أمي إن كان السياج الذي يفصل بين فناءينا لي أم لفندل. وأردت أن أسمع أنه لي، فقد أردت أن يسمح لي بطرده من المكان حين يستند إلى هذا السياج. لكن أمي قالت إن السياج لي ولفندل، وعندها أردت أن ألعن جانبه من السياج فلا تنبت فيه زهرة خباز واحدة. لم أتمنَّ له سوى العشب القاسي الظلف.

ويقول الأطباء من المدينة إنّ الخوف هو السبب في تلعثم فندل. لقد تمكن الخوف منه ذات مرة ولم يزل مذذاك فيه. ويخاف فندل الآن من أن يحصل على الشيء القليل الضئيل من المشمش. ويقف على البيدر في فنائنا يلعب معي لعبة الزوج والزوجة، أنا أدسّ كبتي

الصوف الخضراويين تحت قميصي، وفندل يلصق له شارباً من خيوط خضراء من صوف الخرفان.

ونلعب فألقي بالشتائم عليه لأنه سكران، ولأنّ الدار خالية من النقود، ولأن البقرة بلا علف، وأدعوه فروةً بليدةً وخنزيراً قذراً ونذلاً وشريباً ومخرباً وعديم الفائدة وابن العاهرة وابن الخنزير. هكذا تمضي اللعبة، وهي تسليني ويمكن لعبها. وفندل جالس في صمت.

شقّ فندل يده بعلبة أغذية معلبة، وجعل الدم يسيل غزيراً في العشب، وأنا لا أزيد على أن أقول طرطور متغاضية عن الجرح، ولا أزيد على أن أقول عبيط.

وأطبخ في الرمل وأُلبس دماي ثم أنزع عنها الثياب، وأطعمها قالب حلوى من الرمل وحساء من أزهار العشب.

وأعدّل ثديي، وفندل يتعرّق تحت شاربه. وهكذا تمضي اللعبة.

ثم ألقي بقالب الحلوى الرملي محطمة إياه داهسة إياه بحذائي. ويطير حساء أزهار العشب على الحائط سائلاً إلى الأرض. فأركض مع دميتي العارية إلى الدار وأفقد ثديي أمام باب المطبخ.

ثم أستدرج فندل إلي بأولى المشمشات الخضراء وما زال نصفها في الزهر، فيأتي فندل إلي.

ونلعب ثانية لعبة الزوج والزوجة.

وتناديني جدتي للمرة الثالثة، ثم تأتي إلينا بنفسها. فأُجرّ تحت الصفعات واللطمات إلى قيلولة الظهر جراً، وهي تقول وقد ذوى عنها الغضب: لكي تصبحي طويلة قوية. تُرى من ستضرب عندما

أصبح طويلة قوية، ومن سيكون هناك غير قادر على الدفاع عن نفسه أمام يدها الباطشة؟

كم أكره قيلولة الظهر هذه! وأستلقي مع البغض في السرير، وجدتي تعتّم الغرفة مغلقة الأبواب بالترتيب: باب الغرفة، فباب الغرفة الأمامية، فباب المدخل. ولا يسمح لي طيلة ساعتين بأن أخرج من هذه الظلمة. وينتابني الخوف من الإغفاء. إن جدتي تريد أن تلقي علي سحراً، وأنا أصدّ نومها العميق كنوم الخشخاش الذي أصير فيه لا شيء، والذي أكون فيه ميتة مادمت نائمة. هاهو النوم يسبح في فضاء الغرفة، ثم لا يلبث أن يلامس بشرتي، فيمسي كل شيء أعمق مما أطيق، والزبد كثيف في الأعلى عند سقف الغرفة. وتشقّ أسرابُ الطيور الماءَ وفي مناقيرها جوع شديد. ستنقض علي وتمزّق جلدي تنقيراً، وستصرخ قائلة إنك جبانة فارغة، وسأستيقظ بلا جوارح وبلا مخاوف.

ويكتم النوم بفروته وجهي، فتنبعث منها رائحة كرائحة الخشخاش والموت مثل تنانير جدتي. والنوم هو نوم جدتي، هو سم جدتي. والنوم هو الموت.

وأقول له إني مازلت طفلة. لقد سبق أن أردت الموت أحياناً، لكن ذلك لم يتم حينئذ. والصيف الآن في الأوج، وأسراب الطيور تشق الماء. وأنا الآن لا أريد أن أموت، لقد اعتدت الآن على نفسي وما عدت أطيق خسارتها. وأرفع الدثار عني، فيلفح عرقي هواءٌ عليل كثير. وما أعرض هذا السرير وما أطوله، وما أبيض هذا السرير وما

أجوفه حتى إني لأستلقي وسط حقل من الثلج، وسط ليلة صقيعية، وسط التجمد.

وصرّ باب الفناء ليصرف باب الممر ليجشّ باب الغرفة الأمامية، ويرتطم باب الغرفة بالصندوق، فتقف جدتي في الغرفة رافعة الأبجور السحاب، وإذا النهار مبصر في الخارج، وريش الطير يكاد يتبخّر من الصيف.

جلس فندل على البيدر يربط عليه شاربه، مادّا يديه بكبّتي الصوف نحوي، فأدسّهما في صمت تحت الثوب. ونلعب ثانية لعبة الزوج والزوجة، فلا نلعب حتى النهاية.

عند نهاية الزقاق تغيب الشمس في بركة سَقمٍ حمراء، والقرية قائمة في هذه الربوع كصندوق من أسيجة وأسوار. ويحطّ على القرية كيسٌ، كيس ليلٍ محبوك. فلا يبرد شيء، ويمسي كلُّ شيء أسودَ ثقيلاً قابلاً للتمدد.

ويطقطق الأبجور السحاب عند المفاصل، ويعوم الرمل في مجرى السقف، وتعوم كثبان النوم عبر رأسي، وباب الحديقة يصرف. هناك تجري الرياح خلال أحواض الزرع طوال الليل. مرعبة هي كثرة الأشجار في القرية، وكلُّها في وجهي.

والسرير كبطن بقرة، وكلّ شيء ساخنٌ مظلمٌ يتصبب عرقاً. وحمالة بنطال جدي معلّقةٌ بمسمار، وبنطاله الخالي يجوب الغرفةَ. وحين أمدّ يدي يتسنى لي أن أُلامسه. لعلّ في جيوب البنطال مسامير، فهي لا ترى.

والأمهات نائمات، والآباء نائمون، والجدات نائمات، والأجداد نائمون، والأطفال نائمون، والدواجن نائمة.

والقرية قائمة كصندوق في هذه الربوع.

وأمي لا تبكي، وأبي لا يشرب، وجدي لا يهوي بالمطرقة، وجدتي ليس لديها خشخاشها، وفندل لا يتلعثم.

والليل ليس غولاً، فليس في جوفه سوى الريح والنوم.

وأسمع البول في الغرفة المجاورة يخرخر في طنجرة الليل. جدي واقف فوق الطنجرة، والساعة الخامسة.

ولم تستيقظ جدتي عند الثانية والنصف، لقد هوت في هذا النوم المضر.

منذ زمن طويل لم يحصل ذلك.

ذات صباح ستكون ميتة.

عندما تصبح أحواض المياه ضحلةً ستجفّ ظهورُ الضفادع. وحينها ستدبُّ الحرارة في بطونها، وما سيبقى منها هو جلدٌ قاسٍ. وهو مبعثر في جميع أرجاء الأفنية. ولا يعرف الناس إلا حين تموت الضفادع أنّها كذلك تسكن البيوت، وأنها تصعد الأدراج معتلية أرضَ السقف، والجةَ المداخن السوداء.

لدارنا مدختنان ستكونان مملوءتين بالضفادع، إحداهما حمراء والأخرى سوداء.

الحمراء قائمة من فوق الغرف المهجورة لا يتصاعد منها الدخان أبداً وتقطنها بومات كثيرة. وعلى أمي كلَّ عام أن تدفع ضرائب

المداخن. وتقول أمي إن هذا مكلفٌ إذا حُسبت جميع السنوات، وإحداها فوق ذلك للبومات فقط.

في الأسبوع الماضي كانت هذه البومات متحفِّزةً متأهّبةً، وسمعتُها طوال الليل فوق السقائف. إنّ لها زوجاً من الأصوات، رفيع وغليظ، لكنّ الأصواتَ الرفيعةَ كذلك غليظةٌ جداً، وأما الغليظة فأشد إغراقا في الغلظ.

لابد أنّها الذكور والإناث، وهي تملك لغة بكل ما تعنيه الكلمة.

وذهبتُ بضع مراتٍ إلى الفناء، فلم أستطع رؤية شيء فيما خلا أعينها، والسقف يعج بها. وكانت أعينها تبرق، فإذا بالسقف كلّه منيرٌ يومض كالجليد. ولم يكن ذاك ضياء القمر. في تلك الليلة توفي جارنا، وقد أكل في المساء السابق ذاته جيداً، ولم يكن مريضاً. أيقظتني زوجته صباحاً قائلة لي إنه اختنق في نومه، فخطرت لي البومات فوراً.

الحديقة بيننا وبين الجيران مليئة بتوت العلّيق، وهي ناضجة بحيث تصبغ الأصابع دماً. لم يكن عندنا توت عليق قبل بضع سنين، وكان لدى الجار وحده بعض الشجيرات منها في الحديقة. أما الآن فقد عبرت إلينا ولم يعد عند الجار ولا حتى حالق واحد منها. إنّها ترتحل. لقد قال الجار لي مرة إنّه هو كذلك لم يزرعها قط، بل أتت من تلقاء نفسها من حديقة أخرى. وخلال بضع سنوات لن يبقى عندنا أيضاً شيء منها، إذ إنها ستكون قد رحلت من جديد. املئي بطنك منها الآن، فالقرية صغيرة، وسترحل إلى خارج القرية.

وبالأمس كانت الجنازة. كان قد كبر في السن، لكنه لم يكن مريضاً. أحضره ولده منذ بضعة أشهر من الجبال، فقد انهارتْ دارُه بعد أن دكّها سيل عارم طفح عن الضفاف. أهل الجبال أحسن صحة. وقد جلب معه طاقية. ولم تكن قلنسوة ولا قبعة. وهذه الطواقي لا ترتدى إلا في تلك القرية. وقال إنه يريد أن يُدفن مع هذه الطاقية. وقد قالها مازحاً، فهو ما كان يريد أن يموت، ولم يكن إلى ذلك مريضاً.

أما الآن فقد رصّوا له هذه الطاقية على رأسه الميت، وفي أول الأمر امتنع مصراع التابوت عن الانغلاق حتى إنهم دقوا عليه بالمطرقة.

كانت ساقا أمي راقدتين بجانب ساقيّ تحت اللحاف نفسه، وتصورتهما عاريتين مليئتين بالدوالي. أرجلٌ لا حصر لها كانت راقدةً على الأرض.

لم يرقد في الحرب دوماً سوى الرجال. لقد رأيت نساءً بأعينهن راقدات على أرض المعركة بأثواب متنحّية وسُوق متقرّحة. رأيت أمي ترقد عارية متجمدة في روسيا قريحة الساقين خضراء الشفتين من لفت العلف.

ورأيت أمي رقيقةً من الجوع مسلولة مجعّدة حتى العظم كفتاة مرهقة غاب عنها وعيُها.

كانت أمي قد غفت، ولم أسمعها تتنفس البتة وهي مستيقظة، حتى إذا ما نامت جعلت تخرخر كما لو أن ريحاً سيبيرية في حلقها

للتو واللحظة، ورحتُ أرجف بجانبها وسط رعدات الأحلام الموحشة.

ارتفعت في الخارج مياه الأحواض، ولم يكن في القرية من قمر، وكان الماء حالكاً ناضحاً.

وجعلت الضفادع تنق من رئتي أبي الميت السوداويين، ومن رغامى جدي المخرخر المتصلبة، ومن شرايين جدتي المتصلبة. جعلت الضفادع تنق من أحياء وأموات هذه القرية بأكملهم.

لقد جلب كل واحد ضفدعاً معه في هجرته إلى هنا. وهم يطرون أنفسهم مُذْ وجدوا هنا بأنهم ألمان، ولا يتحدثون عن ضفادعهم أبداً، ظانين أن ما يمتنع الناس عن الحديث عنه هو كذلك غير موجود.

ثم جاء النوم، وسقطت في محبرة كبيرة. هكذا كان الظلام في الغابة السوداء ولا بد. وكانت ضفادعهم تنق في الخارج.

أمي كذلك أحضرت معها ضفدعاً من روسيا.

وكنت أسمع ضفدع أمي الألماني حتى من وراء نومي.

الحدائق رقراقة الخضرة، والأسيجة تسبح وراء الظلال الرطبة، وزجاج النوافذ ينزلق عارياً وضّاء من دار إلى أخرى، وبرج الكنيسة يدور، وصليب الأبطال يدور، وأسماء الأبطال طويلة متآكلة. أخذتْ كيته تقرأ الأسماء من أسفل إلى أعلى فتقول وهي ترسم إشارةَ الصليب بيدها أمام الكنيسة: الثالث من أسفل هو جدي. وأمام الطاحونة تتلألأ البركة، والطحالب البطيّة عيونٌ خضراء. وتقول كيته: وسط نباتات السمّار تعيش أفعى كبيرة. لقد رآها الحارس الليلي. إنها تأكل في النهار الأسماك والبطّ، لتتسلل في الليل إلى الطاحونة ملتهمة النخالة والطحين. والطحين الذي تخلفه وراءها رطب من لعابها. ويفرغه الطحان في البركة، فهو سام.

الحقول راقدة على بطنها، وعالياً في الغيوم تقف الحقول رأساً على عقب، وجذور دوّار الشمس تطوّق الغيوم. وتدوّر يدا أبي المقود، وأرى شعره من خلال النافذة الصغيرة خلف صندوق الطماطم. وتمضي السيارة مسرعة، والقرية تغرق في الزرقة. وأُضيع برج الكنيسة من عيني، وألمح رجل الخالة بحذاء فردة بنطال أبي.

وعلى طرف الشارع تمرّ بنا المنازل، وهي ليست بقرى لأني لا أعيش هناك. وفي الشوارع يخون رجال صغار بنطاطيل مبهمة نساءهم، وعلى الجسور الضيقة التي يخر الماء من تحتها ترفرف تنانير السيدات الغربيات. وتحت أشجار كبيرة كثيرة يقف أطفالٌ

بأفخاذٍ مهزولة عارية وحيدين بلا بناطيل يمسكون تفاحاً في أيديهم ولا يأكلون، ويلوّحون منادين بأفواهٍ فارغة. فتلوّح كيته قليلاً ثم لا تعود تنظر إليهم. أما أنا فألوّح طويلاً محدقة طويلاً إلى هذه الأفخاذ المهزولة حتى تذوب فلا أعود أرى سوى الأشجار الكبيرة.

والسهل تحت الروابي، وسماءُ قريتنا تحمل الروابي، وهي لا تهوي على السهل عبر الغيوم. وتقول كيته متثائبة في أشعة الشمس: لقد ابتعدنا الآن. ويقذف أبي سيجارة متوهجة من النافذة، والخالة تحرك يديها متحدثة.

والخوخ بين الأسيجة أخضر صغيرُ، وفي العشب تقف بقرات متطلّعة في غبار العجلات وهي تجترّ، ومن فوق العشب تتسلق الأرضُ حجارةً ملساء وجذوراً وألحية. وتقول كيته: هذه جبال والحجارة صخور.

بجانب عجلات السيارة تهبّ الشجيرات إثر تيار الهواء، والماء يجري مخرخراً من جذورها، فيشرب السرخس نافضاً نسيجه المدبب. وتمضي السيارة على طرق ضيقة رمادية تُدعى حيايا كما تقول كيته. وتلتوي بنا هذه الطرق، وأقول: قريتنا منخفضة على سفوح الجبال. فتضحك كيته قائلة: الجبال هنا في المرتفعات الجبلية، وقريتنا هناك في السهل.

معالم الكيلومترات الحجرية البيضاء تحدّق فيّ، ونصف وجه أبي فوق المقود، وتصيب الخالةُ أذُنَه بيدها.

طيور صغيرةٌ تثب من غصن إلى غصن لتضيع في الغابة صائحة

لبرهة وجيزة، وحين لا تلامس الأغصانَ تطير في صمت ضامّةً أرجلها إلى بطنها. كيته أيضاً لا تعرف ماذا تُسمّى هذه الطيور.

وتنتقي كيته من صندوق الخيار خيارة صغيرة خشنة، فتعضّ عليها بفم مدبب باصقة القشر.

وتغرب الشمس من وراء أكبر الجبال، فيترنّح مبتلعاً النور. وأقول: في الدار تغيب الشمس من وراء المقبرة. فتقول كيته آكلة حبة طماطم كبيرة، واضعة يدها الرفيعة على ركبتي، والسيارة تئزّ بين يدها وجلدي: في الجبال يحلّ الليل أسرع من عندنا في الدار. فأقول: في الجبال يحلّ الشتاء أيضاً أسرع من عندنا في الدار.

وتشمشم السيارة بأنوار خضراء في طرف الغابات، وينثر السرخس نسيجه المدبب في الظلام، وتنام الخالة مسندة خدها إلى الزجاج، وتتوهّج سيجارة أبي من فوق المقود.

ويلتهم الليلُ الصناديقَ على السيارة ليلتهمَ الخضراواتِ في الصناديق. وبين الجبال تنبعث من الطماطم رائحةٌ أقوى من عندنا في الدار. ليس لكيته ذراعان ولا وجه، وتمسح يدُها بدفء على ركبتي الباردة، وصوتها جالس بحذائي متحدثاً من بعد. أما أنا فأعضّ على شفتيّ بصمت كي لا أفقدهما في الليل.

وتُركن السيارة، ويطفئ أبي الأنوار الخضر فيترجل من السيارة منادياً: لقد وصلنا. السيارة واقفة تحت المصباح أمام دار طويلة لها سقفٌ أسودُ كالغابة. وتصفق الخالةُ بابَ السيارة وتدفع بقميص نوم في يد أبي، مشيرة بسبابتها المعقوفة نحو الظلام قائلة: هناك في

الأعلى القرية. فأتبعُ بعينيّ سبابتها لأرى القمر.

وتقول كيته: هنا الطاحونة المائية. ويتأبّط أبي قميصَ النوم مُناولاً الخالة مفتاحاً. فتفتح الخالة باب الدار الأخضر بالمفتاح. وتقول كيته: العجوز تعيش في القرية عند أختها.

وتتوارى الخالة خلفَ بابٍ أسود، إلى غرفتها كما يقول أبي. أما هو فيصعد الدرجات الخشبية الضيقة موصداً السقّاطة من ورائه، فنستلقي أنا وكيته على سرير ضيق تحت الكوّة السوداء ذات ستارة الدانتيل البيضاء. ويخرُّ الماءُ عبرَ جدارِ الغرفة، فتقول كيته: إنه الجدول.

شعر كيته يخشخش في أذني، والقمر مطلٌّ أمام الكوّة السوداء في فيه الغيوم السوداء، وهنالك القرية.

ويرقد فخذا كيته أخفض من فخذيّ، ورأسها راقد أعلى من رأسي، وبطنها تنفّس هواء ساخنا. وتحت جسدي النحيل القصير تخشخش ملحفة القش.

ويصرف السرير خلف الباب الأسود، ويخشخش القشُّ خلفَ السقّاطة.

وللهواء الساخن من بطن كيته رائحة كرائحة الإجاص الفاسد، ونَفَسُها يتهادى في النوم. وتنمو من ستارة الدانتيل كتلُ أزهارٍ ترشح ماءً ذاتُ سُوق سامقة وأوراق متلوّية.

ويهبط صريرٌ الدرج إلى أسفل، فأرفع رأسي لأدعه يرتمي من جديد. ويتبع أبي الصرير عاري القدمين متحسساً بيدين كبيرتين

الباب الأسود، فلا يصرّ الباب، وتطقطق أصابع قدميه، ثم ينطبق القفل من وراء ظهره بسكون. وتكهكه الخالة قائلة: قدمان باردتان. فيتمطّق أبي بشفتيه قائلاً: فئران وقش. ثم يصرف السرير، وتتعالى أنفاس الوسادة، ويتقلب الدثار في دفعات طويلة.

وخلف الدار يثغثغ الجدول، ويتزاحم الحصى، وتتدافع الحجارة. وتضطرب يد كيته في نومها، وتكهكه الخالة، ويهمس الأب. ومن وراء الكوّة ترفرف ورقة مستديرة.

ثم يطقطق قفل الباب الأسود ليصعد الأب الدرجات الخشبية الضيقة بلا عقبين، عاري القدمين، وقميصه مفتوح، ولمسيره رائحةٌ كرائحة الإجاص الفاسد. وتصرّ السقاطة منطبقة بأناة، وتدير كيته وجهها أثناء النوم.

ويثغثغ الجدول بين عينيّ: لقد ارتكبتُ الرذيلة، لقد شاهدت الرذيلة، لقد استمعت إلى الرذيلة، لقد قرأت الرذيلة. وأدفن يديّ تحت اللحاف راسمة بأصابعي حيايا.

وتحني كتل الزهور سُوقها البيضاء، وللنافذة السوداء شق رمادي. وتطل الغيوم مملوءة بأحزمة حمراء، وتخضرّ رؤوس الإبر في أشجار التنوب.

وتقف الخالة معصوفةً في الباب الأسود، وتحت قميص نومها بطيختان ترتعشان، وتقول شيئاً عن الغيوم الحمراء والرياح. وتتثاءب كيته بفم أحمر كبير رافعة ذراعيها أمام الكوّة. ثم تصرّ السقّاطة ليهبط أبي الدرجات الضيقة حادِبَ الظهر مخشوشن الوجه

بالشعر قائلاً: نمتِ جيداً؟ فأقول: نعم، وتومئ كيته برأسها موافقة. وتزرّ الخالة قميصها، والزِّر بين البطيختين صغير جداً فينسل خارج العروة. وتنظر الخالة في وجه أبي قائلة جملتها ثانية عن الرياح والغيوم الحمراء، وأبي مستندٌ إلى الدرج الخشبي يمشط شعره تاركاً عشاً من الشعر الأسود يقع من المشط المدهن بجانب الدرج، ويقول: سنأتي في الساعة الثانية لنأخذكم. فتنظر الخالة ضاحكة إلى الباب الأخضر قائلة: كيته تعرف.

وتئزّ السيارة، والخالة جالسة فيها بحذاء أبي ممشطة شعرها بالمشط المدهن، والشعر أشيب وراء أذنيها.

وأنظرُ نحو الأسقف الحمراء البعيدة. فتقول كيته: هناك في الأعلى القرية. فأسألها: هل هي كبيرة؟ فتقول: بل صغيرة مقيتة.

وأنظر إلى الماء سائلةً: هل أنت امرأة الآن؟ فتقول كيته رامية الحصى في الماء: فقط من عندها زوج فهي امرأة. فأسأل لائكة في فمي ورقة بتولا: وأمّك. كيته تحدّث نفسها ناتفة زهرة مارغريتا: يحبني، لا يحبني. ثم تقذف عقدة زهرة المارغريتا الصفراء العارية في الماء قائلة: إن أمي لها أطفال، ومن لا زوج لها فليس لها كذلك أطفال. فأسأل: أين هو؟ فتقول كيته مقتلعة ورقة سرخس: يحبني، ميّت، لا يحبني. فلتسألي أمك إذا كنت لا تصديقنني. وأقطفُ أزهار المارغريتا قائلة: إيلي العجوز ليس لها أطفال. فتقول كيته: هي لم يكن لديها زوج أبداً. وتهرس ضفدعاً ذا بقع بنية بحجر، ثم تقول: إيلي عذراء عجوز. فأقول ناظرة في الماء: إن الشعر الأحمر

ينتقل بالوراثة، فحتى دجاجاتها حمراء، وأرانبها لها أعين حمراء. خنافس سوداء صغيرة تدبّ من زهرة المارغريتا على يدي. وأقول: إيلي تغني أحياناً في الحديقة. فتقف كيته على جذع شجرة مقطوعة منادية: إنها تغني لأنها تشرب. على النساء أن يتزوجن، فحينها لن يشربنَ. فأسأل: والرجال؟ فتقول كيته واثبة إلى العشب: هم يشربون لأنهم رجال. وهم كذلك رجال حتى لو لم يكن لديهم زوجات. فأسأل: وعريسك؟ فتقول كيته: هو كذلك يشرب لأنّ الكل يشرب. فأسأل: وأنت؟ فتقول كيته ضاجّة العينين: أنا سأتزوج. وأقذف حجراً في الماء قائلة: أما أنا فلن أشرب ولن أتزوج. فتضحك كيته: ليس بعد، لكن بعد حين، الآن مازلت صغيرة. فأقول: وماذا إن كنت لا أريد. فتقول كيته قاطفة حبات من الفراولة: حين تكبرين لن تلبثي أن تريدي.

تستلقي كيته في العشب وتأكل فراولة برية، ورمل أحمر يعلق بين أسنانها، وفخذاها طويلتان شاحبتان، وترمي كيته بسُوق الفراولة العارية على وجهها مغنية: وذا يجلب لي أحداً، أُحبّه كما لا أحبّ أحداً، ويجعلني سعيدة. ويدور لسانها أثناءَ ذلك في جوف فمها أحمر اللون معلّقاً بخيط أبيض. فأقول: هذا تغنيه إيلي مساء في الحديقة. فتغلق كيته فمها، وأسأل: وما يأتي بعد ذلك؟ وتجثو كيته على العشب ملوّحة. وإذ بالسيارة تأتي متدحرجة من بين السقوف البعيدة، والصناديق الفارغة تصطكّ فوقها.

ترجّل أبي من السيارة مقفلاً بابَ الدار الأخضر، والخالة جالسةٌ

بجانب المقود تعدّ النقود. ونصعد أنا وكيته إلى السيارة الآزة فتجلس بجانبي على صندوق خيارٍ فارغ.

وتعدو السيارة في عجلة، وأرى كم هي عميقة هذه الغابات، وتُحلّق الطيور التي لا أسماء لها مرفرفة من فوق الطريق. وتنعكس بقع الظلّ من الأغصان المحتبكة مهرومة على وجه كيته، وحواف شفتيها حادة داكنة، ورموشها كثيفة مدببة كإبر أشجار التنوب.

ولا يسير في القرى رجال ولا نساء. ولا يقف تحت الأشجار الكبيرة أطفال عراة، وتقبع بين الأشجار فاكهة ذاوية. وتنبح كلاب متلبّدة الفرو في إثر العجلات.

وتنتهي الهضاب إلى حقولٍ فسيحة. وترقد السهول على بطنها السوداء، والريح ساكنة بلا حراك. وتقول كيته شادّة أغصان الأكاسيا المتدلية، منتزعة بيدين بيضاوين الأوراق من السُوق وليس لها وجه: قريباً سنكون في الدار. ويقول صوتها الخفيض وهي تلوك الساق العارية: يحبني، لا يحبني.

من وراء الحقل يرتفع برج كنيسة رمادي. فتقول كيته: هناك كنيستنا. والقرية منبسطة سوداء خرساء، ويسوعُ معلّق عند مدخل القرية على الصليب، حانيَ الرأس مبيّن الكفين، مسلول أصابع القدمين سابغها. وترسم كيته إشارة الصليب بيدها.

البركة تلمع سوداء مهجورة، والأفعى الكبيرة تلتهم في الطاحونة النخالة والطحين، والقرية مهجورة. وتقف السيارة أمام الكنيسة، فلا أعود أرى برجها، وأرى الجدران الطويلة المعوجة قائمة من وراء

أشجار الحور.

هبطت كيته مع الخالة الطريق السوداء، وليس للطريق اتجاه، ولستُ أرى الرصاف. فأجلس إلى جانب أبي، والمقعد ما زال دافئا من فخذي الخالة وله رائحة كالإجاص الفاسد.

جعل أبي يقود ويقود، ويقود يدَه خلال شعره، ويقود لسانه على شفتيه، ويقود بالأيدي والأرجل عبر القرية الخالية.

من وراء نافذة بلا منزل يتردد ضوء. ويقود أبي السيارة عبر ظلّ البوابة إلى الفناء، ثم يُسدلُ الغطاءَ المشمّعَ عليها.

أمي تجلس إلى حافة الطاولة تحت الضوء تحشو جورباً فارغَ الكعب بصوف رمادي، والصوف ينسل بنعومة من يدها، فترمق سترة أبي بنظرات مستقيمة كوتر مشدود لتبتسم ابتسامة واهنة تتعثّر عند طرف شفتيها.

وراح أبي يطرح أوراقاً نقديّة زرقاءَ على الطاولة محصياً، قائلاً بصوت عال: عشرة آلاف. فتسأل أمي: وأختي؟ فيقول أبي: لقد حصلتْ على نصيبها، وثمانية آلاف حظُّ المهندس. فتسأل أمي: مِن ذاك؟ فيهزّ أبي رأسه، وتأخذ أمي النقود حاملة إياها بكلتا يديها إلى الخزانة.

تنحني أمي علي وأنا راقدة في فراشي فتقبلني على خدي بشفتين قاسيتين كأصابع اليدين، وتسأل: كيف نمتم هناك؟ فأغلق عينيّ قائلة: أبي في الأعلى على القش، والخالة في غرفتها، وكيته وأنا في الغرفة الأمامية. فتقبلني قبلة قصيرة على الجبين، وعيناها تومضان

ببرود، وتدور ماضية.

وتتكُّ الساعةُ في أرجاء الغرفة: لقد استمعتُ الرذيلة. وسريري منتصب بين نهر ضحل وغابة ورقيّة مرهَقة في السهل، والسرير خلف جدار الغرفة يصرّ في دفعات قصيرة، السهل يعجّ بالأسرة السوداء والإجاص الفاسد.

بشرة أمي مترهّلة، ومساماتها فارغة. فيعود الإجاص الفاسد لينسلّ إلى الجلد. والنوم أسود تحت الجفون.

حمّالة جوارب أمي تحزّ عميقاً في وركيها ضاغطةً معدتها على بطنها المشدودة. وحمالة جوارب أمي من دِمَقْس سماوي، عليه أزهارُ توليب باهتة وثؤلولان مطاطيان أبيضان وإبزيمان من سلك مقاوم للصدأ.

تضع أمي جوربي الحرير السوداوين على الطاولة. والجوربي الحرير ربلتان شفافتان ثخينتان، وهما من البلّور الأسود. وللجوربين عقبان حاجبان مدوّران ومقدمتان حاجبتان مدببتان، وهي من الحجر الأسود.

وتشدّ أمي جوربي الحرير السوداوين على ساقيها، فيهيم التوليب الباهت من وركيها على بطنها، ويسودّ الثؤلولان المطاطيان، وينغلق الإبزيمان.

وتدسّ أمي المقدمتين الحجريتين دافعة بالعقبين الحجريين في الحذاء الأسود، وكاحلاها نتوءان حجريان سوداوان.

ويطنّ الجرس بالكلمة نفسها بحدة وغلظة، ويطن من المقبرة ويقرع.

وتحمل أمي الإكليل الداكن من عساليج التنوب والأقحوان الأبيض. أما جدتي فتحمل الإكليل الرنّان من الحجارة البيضاء الصغيرة وعليه صورة مستديرة لماريا الباسمة والخط المجريّ الملكيّ المتآكل: الشكر لك يا ماريا العذراء. والإكليل تحت سبابتها يتأرجح

على المفصل النحيف المحمرّ من الاحتكاك.

وأحمل أنا حزمة من السرخس المشتّت دقيق العروق مع حفنة من الشموع التي تماثل في بياضها وبرودتها أصابعي.

ويتثنّى ثوب أمي على حنايا سوداء، ويطقطق حذاؤها في خطىً قصيرة، وأزهار التوليب هائمة حول بطنها.

ويَقرع الجرسُ في قرعه الكلمة ذاتها، لها صدىً من قبلها ومن بعدها ولاتبلغ ختامها. وتخبّ أمي بربلتي ساق بلوريتين، وبكاحلين حجريين، والجةً صدى الكلمة وقرعَ الجرس.

ويسبق خطوات أمي سيب الصغير بإكليل من نبتة العناقية والأقحوان الأبيض.

وأسير أنا بين الإكليل الداكن من عساليج التنوب والإكليل الرنان من الأحجار البيضاء الصغيرة ماضية وراء سرخسي المشتّت.

وأعبر بوابة المقبرة والجرسُ أمام وجهي، وقرع الجرس تحت شعري، والقرع في النبض بجانب عينيّ، وفي معصميّ المهشمين تحت السرخس المنكوش، وعقدة حبل الجرس المتأرجحة في حلقي.

سبابة جدتي عند جذر الظفر مزرقّة ميّتة، وهي تُعلّق إكليلها الرنان من الأحجار البيضاء الصغيرة على شاهدة القبر فوق وجه أبي. وحيث عينا أبي الغائرتان الآن قلبُ ماريا الباسمة الأحمرِ المهشّم، وحيث شفتاه القاسيتان الآن الخط المجري الملكي.

وتقف أمي الآن عاطفة على الإكليل الداكن من العناقية، معدتها

تضغط على بطنها، والأقحوان الأبيض يلتفّ فوق خدها، وثوبها الأسود يجيش في الريح الحائمة حول القبور. ولقدم أمي البلورية السوداء شقّ أبيض رفيع يجري خلال فخذها إلى الثؤلول المطاطي وإلى بطنها التي يهيم عليها التوليب.

وتفرد جدتي بسبابتها الميتة السرخس المنكوش الراقد حول حافة القبر، فأدسّ الشمعات البيض بين قضبانه آخذة بالحفر في التراب بأناملي الباردة.

ويتذبذب لهب عود الثقاب أزرقَ اللون في يد أمي، وترتعش أصابعها، وترتعش الشعلة.

ويبتلع التراب مفاصل أصابعي، وأمي تطوف بالشعلة حول القبر قائلة: الناس لا يحفرون على القبور. وتمدّ جدتي سبابتها الميتة مشيرة إلى قلب ماريا الباسمة الأحمرِ المهشّم.

وعلى درجات الصومع يقف القسّ تعلو حذائيه طياتٌ سوداءُ تدب فوق بطنه إلى أسفل ذقنه، وحبل الجرس والعقدة الثخينة يتأرجحان خلف رأسه. فيقول طاوياً يديه الهزيلتين على بطنه: فلنصلّ لأرواح الأحياء والأموات.

وتثني عساليج التنوب إبرها، ويلوي السرخس الأضلاع المفرّقة، ويعبق الأقحوان برائحة الثلج، وتفوح الشموع برائحة الجليد. ويسودّ الجو فوق القبور مدندناً بصلاة: وأنت يا إلهي، يا مليك الملأ الأعلى، خلّصنا من هذا المنفى. والليل من فوق برج الصومع أسود مثل قدمي أمي البلوريتين.

وتطرح الشموع غَيْضة سائلة من بين أصابعها لتتجمد الغيضة في الهواء جمود ضلوعي، والفتيل متفحّم منعقف لا يحمل اللهب. وتتدحرج كتلة تراب أسفل السرخس بين الشموع المقصومة.

وتقول أمي وعلى جبينها الأقحوان الملفوف: الناس لا يجلسون على القبور. وتمدّ جدتي السبابة الميتة، والشقّ على ساق أمي البلورية عريض عرض هذه السبابة.

ويقول القس: أيها المؤمنون الأعزاء، اليومَ عيد جميع القديسين، اليوم عند أمواتنا الأعزاء مهرجان مسرّة. اليوم عند أرواح أمواتنا عيد الكنيسة.

ويقف سيب الصغير طاوي اليدين فوق إكليل العناقية عند القبر المجاور: خلّصنا، أيها الرب، من هذا المنفى. ويرتعش في الضوء المرتعش شعره الأشيب.

ويُرقّص سيب الصغير بأكورديونه الأحمر العرائسَ المتهاديات البيض عبر القرية، ويُرقّص ضيوف العرس أزواجاً بشرائطهم الشمعية البيضاء حول المذبح وأسفل قلب ماريا الباسمة المهشّم، ويُرقّص قالب حلوى الفانيلا ذو الحمامتين الشمعيتين البيضاوين على قمته نحو وجه العروس. ويعزف سيب الصغير التانغو الضاغط بأكورديونه الأحمر لترقص أذرع الرجال والنساء وأرجلهم.

ولسيب الصغير أصابع قصيرة وحذاء قصير. وهو يضغط بأصابعه المتباعدة القصيرة على المفاتيح. والمفاتيح العريضة من الثلج، والرفيعة من التراب. ونادراً ما يضغط على المفاتيح الرفيعة. فإن ضغط عليها

لا تلبث الموسيقى أن تبرد.

والعروس المتهادية هي الجارة. وهي تلوّح بسبابتها وتقطع لي قطعةً من قالب الحلوى واضعة الحمامتين الشمعيتين البيضاوين في يدي وعلى وجهها ابتسامة متضعضعة.

وأغلق يدي، فتصير الحمامتان دافئتين كجلدي وتعرقان. وأدسّهما في كبّة لحم وفي الخبز الذي أنهش منه. وأبلع الخبز مصغية إلى التانغو الضاغط.

وترقص أمي مع التوليب الهائم عند حافة الطاولة قائلة والأقحوان الملفوف حول فمها: الناس لا يعبثون بالطعام.

ويرفع القس يديه الهزيلتين باسم الرب قائلاً: خلّصنا من هذا المنفى. وتتصاعد من يديه غيضة متدفقة من الدخان حائمة حول عقدة حبل الجرس مرتقية في البرج.

وتقول أمي: لقد غار القبر، ولا بد من حمولتين من التراب وحمولة من الروث الطازج لكي تنمو الأزهار. ثم تقول وحذاؤها الأسود يحفحف في الرمل: هذا في مقدور عمّك القيام به من أجل أخيه الميت.

وتعلّق جدتي الإكليل ذا الحجارة البيضاء على سبابتها الميتة.

وتتطلّع عينا أبي الغائرتان إلى قدم أمي البلورية بشقها الأبيض، وحذاءاها السوداوان يسيران على تلال الخلدان بين القبور الغريبة.

ثم نعبر بوابة المقبرة. وتغور القرية وتنبعث منها رائحة كعساليج التنوب والسرخس وكالأقحوان وكغيضة الشمع.

ويسير سيب الصغير سابقاً خطواتي.

والقرية سوداء. والغيوم من الدِمَقْس الأسود.

ويرنّ إكليل جدتي من الحجارة البيضاء. وتعصر أمي أصابعي في يدها.

أبي هو روحنا الميتة.. أبي عنده اليوم عيد الكنيسة، وهو يرقص مارّاً بطرف القرية.

تحزّ حمالة جوارب أمي وركيها عميقاً.

ويدفع أبي في التانغو الضاغط على غيمة من الدمقس الأسود.

تشدّ أمي الربطة الثامنة على وركي. والربطات بيضاء ضيقةٌ ساخنةٌ تضغط على الوركين وتحبس النفَس في الحلق.

بيتر يجلس على كرسي إلى زاوية الطاولة منتظراً.

التنانير الداخلية مثنيّة ثنايا كالحجر ومؤلّلةُ الحواشي. ثقوب حروفِ الدانتيل.. قفص التنورة النحيل عفنٌ ثقيل. وللحروف عروق كَلِسة كجدران الطاحونة القديمة الطويلة ذاتِ العروق الكلسية.

والتنورة التاسعة رمادية فاقعة كالخوخ في الصباح. وهي تسبح فوق التنانير الداخلية المتحجرة، ولا أشعر إلا بربطتها الساخنة. وللتنورة التاسعة أزهار بيضاء على خلفية قاتمة رمادية كالحرير. والأزهار أجراس صغيرةٌ ذاتُ رؤوس مُطَأطَأة يختبئ الكثير منها بين الثنايا فلا تتراءى إلا حين أدور، وحين يصرّ الأكورديون، وحين تصيح الكلارينت السوداء، وحين يدندن جلد العجل المشدود على الطبل.

يدوّرني بيتر حول وجهه.

وتشعر الأجراس البيضاء بالدوار فتهدر إيقاعاً، ويخطو حذائي إيقاعاً، وتتمايل أهداب طرحتي إيقاعاً، ويطير شعري إيقاعاً. وتقع ضفيرة على أذني، فتقع ضفيرة في عنقي، فتقع ضفيرة على جذر أنفي لها رائحة كالخوخ المهروس.

والطبل يدندن أجوفَ كجسر.

ويدير طوني نصف وجهه خلف رأس باربرا. وتدور عيناي مارتين بأذن طوني. وتدور أذناي حول رأس بيتر.

ويدندن جلد العجل على صدغيّ، وعلى مرفقيّ، وعلى ركبتيّ. ويدندن تحت طرحتي، وتحت جلدي،ويكبت على قلبي.

بيني وبين طوني أربع طرحات مرفرفة الأهداب. بيني وبين طوني وجه معلّم الخبازة وكلارينته السوداء.

تنانيري الداخلية تهتزّ حول ربلتي ساقيّ. وتدور تنورتي الرمادية حول فردتي بنطال بيتر السوداويين. وتشرئبّ رؤوس الأجراس البيضاء من بين الثنايا. ولتنورتي الرمادية جرس أخرس.

عينا بيتر أمام وجهي، ويده كبيرة قاسية. ويرفع طوني يدَ باربرا إلى أسفل أذنه.

وتصمت آلة الكلارينت السوداء. فينفض معلّمُ الخبازة اللعابَ عنها مغنياً: ارقصي معي إلى الصباح.

وأغلق عينيّ وأمضي راقصة مع طوني بتنورتي الرمادية إلى طرف القرية، وخلف الطاحونة، وخلف آخر بصيص ضوء أبيض من المصباح العالي، وأسفل الجسر الأجوف.

وأفتح عينيّ فإذا قطرات مرتعشة على جبهتي، والمطر الناعس تحت الجسر الأجوف يسيل أسفل عنقي. ويعصر بيتر يدي بإبهامه الكبير وبعرقه اللصق مدوّرا إياي حوله دائراً حولي، وأنا هائمة من حوله وركبتاي من رصاص.

يفرغ معلم الخبازة اللعاب من كلارينته السوداء مغنياً بصوت متهدج: لكن لا، لكن لا، هكذا تكلمت، أنا لا أقبّل. وعيناه تدوران كالخمرة في الإبريق، وكتفا طوني الأسودان يدوران حول أهداب طرحة باربرا المحلّقة.

ويمثّل بيتر معي نافذةً، فتلتصق أصابعي بأصابعه، وتلتفّ ذراعي حول مرفقيه. وأمام وجهي تدور النافذة المؤلفة من لحمه ويدي المعصورتين، فأرى من خلالها نصف وجه طوني.

وبين نافذتينا، بين أنصاف وجهينا، يتطلّع وجه أمي حادّ التراسيم بإيشارب حريري أسود، بعينين منقّطتين ثاقبتين، بفم خال من الأسنان.

وتجول العينان الثاقبتان خارج الوجه حاد التراسيم، خارج الإيشارب الحريري الأسود، تجولان إلى نهاية الشارع المفتوح، إلى نهاية القرية المغلقة. وخلف آخر الحدائق، خلف الجسر الأجوف، تشقّ العينان الثاقبتان الأرض هاوية في جوفها.

عند طرف القرية صليب قائم. ويسوع معلّق عند حافة الشارع نازفاً ناظراً إلى حقل اللفت في شرود من خلال نافذة أشجار خوخ مكسرة.

وتنطلق عيناي من النافذة سابحة في الفضاء، تنطلق سابحة من رأسي، من فمي الساخن، من عَرَقي الموارى. نافذتي عمياء، وذراعاي محتبكتان بذراعي بيتر احتباكاً سرمدياً. وأنظر ثانية من خلال نافذتي العمياء لأقول في عجل وهدوء: إني متوعكة.

ويسقط لساني في فمي. وأسقط على جرسي القاتم الرمادي، غارقة في الثنايا السوداء الهائجة على تنانير النساء الهرمات، غارقة في الأيدي المتشبثة، في الفم الخالي من الأسنان.

التنانير السوداء مفتوحة كالشوارع، مغلقة كالقرية، مشقوقة كالأرض المتشبثة خلف آخر الحدائق، خلف العينين الثاقبتين، خلف الفم الخالي من الأسنان.

الرجل ذو علبة أعواد الثقاب

كل مساء تحترق القرية متداعية، وفي البداية تحترق الغيوم.

وكلُّ صيف يأخذ معه هريًا من الأهراء. دوماً يوم الأحد، حين يكون الناس في الرقص ولعب الشدة، تحترق الأهراء. ويتقلّب الغسق كمعيّ غليظ عبر الشوارع، ثم يتضخم في قعر القش وسُوق النباتات المحتبكة. ولا يعرف ذلك سوى شخص واحد، الرجل ذي علبة أعواد الثقاب الذي يحمل حقده عبر نبتات البطاطا إلى ما وراء حقول الذرة. في هذه الحديقة كان يجرّ الأكياس طفلاً غضاً ويقطّع اللفت. وفي هذه الدار كان ينام في الحظيرة. وفي هذه الدار سمّته تابعاً الفتاةُ المماثلة له عمراً ذاتُ الضفائر الشقراء الملساء، التي كانت تأكل البرتقال في الشتاء فترشق في وجهه العصير العبق من القشور الخالية. وهو الآن يسير خلال أعواد الذرة فتحفّ وراءه حفيفاً حتى ليظنّ في نفسه أنه الريح.

وما زال الرجل السمين يلاحقه في الشارع بعينين صغيرتين قاسيتين، ثم يجلس في الحانة إلى طاولة أخرى مكتفياً برمق وجهه بين الفينة والفينة عبر منعطف ذراعه.

والآن يستعر اللهب استعاراً، الآن يتأجج بأثوابه الحمراء اللاسعة صاعداً إلى السقائف، والجمر يتلظى تحت سماء القرية.

وينادي أحدهم: حريق، فينادي اثنان، ثم يصيحُ الجميع بالكلمة ذاتها. وتتزعزع القرية على الرابية، ويهرول الرجال مقبلين

بالدلاء.

ويصل رجال الإطفاء من حفل فرقة الإطفاء، ومضختهم تسير بخطوطها الحمراء مادّة في الأشجار ذراعاً متذبذبة ذات صرير، والنار تستعر مشعّة حول الهري المتوهج الكبير. ثم إذا هنالك فرقعة وتتحطم العوارض منهارة. ويسخن المرجل، وتحمرّ الوجوه وتسودّ منتفخة خوفاً، وأنا واقفة في الفناء تطلع ساقاي من عنقي، لا أملك سوى هذه الحنجرة المعقودة، وبلعومي يقفز من فوق الأسيجة.

النار تعذبني بكماشاتها. النار تقترب، وساقاي خشب متفحم أسود.

أنا هي من أشعل النار. والكلاب فقط تعرف ذلك. وهي تجول كل ليلة في نومي قائلة إنها لن تفشيَ من الأمر شيئاً، غير أنها ستنبحني حتى الموت.

وأتى رجال يهرعون إلى فنائنا، فأفرغوا الحليب في الحديقة آخذين معهم الدلاء، شادّين أبي من كمّ سترته قائلين: تعال، أنت أيضاً من رجال الإطفاء، أنت أيضاً لديك قلنسوة جميلة وزيّ أحمر غامق. أما أبي فالتقف صياحهم في فمه جارياً وراءهم. لقد التقف أبي ذعرهم في عينيه، وجعل زيّهُ الأحمر الغامق يجري أمامه على حجارة الرصيف، وقلنسوته الجميلة تلتهم مع كل خطوة خصلة من شعره الكثيف. وقد علا جبهتي عرق ساخن، وحرقتْ الأمواجُ الحمراءُ تحت جفوني عصبَ الرؤية.

وأركض خلال العشب، وهنا يقف الحشد المنبهت.. وأنا.

وأشعر بعيونهم النافذة في رقبتي.

وما يزال الرجل ذو علبة أعواد الثقاب واقفاً بجانبي.

مرفقه.. هنا بجانب ذراعي مرفقه القاسي المدبب.

ومن نعله يتداعى تراب الحدائق.

لا أحد يحدّق فيّ. الكل ما عادوا يتألفون إلا من ظهور وأعقاب وشرائط مريلات وذيول إيشاربات.

الكل صامتون.

وهم ما يزالون اليوم صامتين، لكنهم يُقصونني.

ويكسب لعبة الشدة يوم الأحد، ويرقص بروعة.. الرجل ذو علبة أعواد الثقاب.

منذ لم يعد في المدرسة سوى أحدَ عشرَ تلميذاً وأربعةِ معلمين يُطلق عليهم جميعاً مدرسة ابتدائية، ومعلّم الرياضة يدرس مادة الزراعة كذلك. ومنذذاك يُمرّن التلاميذ في حصص الزراعة على القفز الطويل على حفرة رمل دائمة الرطوبة وتُلعب كرة الشعوب، في الصيف بكراتٍ وفي الشتاء بكرات الثلج. وفي هذه اللعبة ينقسم الطلاب إلى شعوب. فمن أصابته الكرة عليه التراجع إلى خلف خط النار والتفرج، لأنه قد مات، حتى يرمى بالرصاص جميع أفراد شعبه الآخرين، وهو ما يدعى في القرية بالسقوط. ولدى معلم الرياضة صعوباته في تقسيم التلاميذ. وهو لذلك يدوّن بعد كلّ حصة إلى أي شعب انتمى كل تلميذ. فمن أتيح له أن يكون ألمانياً في الحصة الماضية عليه أن يكون في الآتية روسياً، وكذا من كان روسياً في الحصة الماضية جاز له أن يكون في الآتية ألمانياً. وقد يحصل أن لا يفلح المعلم في إقناع العدد اللازم من التلاميذ بأن يكونوا روساً. فإذا لم يعد في يده حيلة قال: فلتكونوا إذاً ألماناً كلكم وهيّا. ولأن الطلاب في هذه الحالة لا يستوعبون ما الذي يدعوهم إذن إلى التحارب، فهم يقسمون أنفسهم إلى ساكسونيين وصوابيين.

وفي الصيف يكون لدى التلاميذ حبر أحمر كذلك، فيرسمون بعد أن يُرموا بالرصاص بقعاً حمراء على جلودهم وعلى قمصانهم.

وقد تسلّم معلم الرياضة، أي مدير المدرسة، الذي هو إلى ذلك

معلم الألمانية والموسيقى، قبل بضعة أيام حصص التاريخ كذلك، لأن هذه اللعبة ملائمة أيضاً لدرس التاريخ.

وبجانب المدرسة روضة أطفال. والأطفال يغنون الأغاني ويستظهرون القصائد. وتدور الأغاني حول التجوال والصيد وأما القصائد فحول حب الأم والوطن. بل إن الحاضنة التي ما تزال حديثة الشباب، ما يطلق عليه في القرية ريّانة الشباب، وتحسن العزف على الأكورديون، تعلم الأطفال أحياناً أغاني تَرِدُ فيها كلماتٌ إنجليزيةٌ كذلك مثل Darling و Love. وقد يحدث أحياناً أن يمسّ الصبيان البنات أو أن يختلسوا النظر عبر شق بعرض الإصبع في باب مرحاض البنات، وهو ما تدعوه الحاضنة عاراً. ولأن هذا يطرأ من حين إلى حين تُعقد في روضة الأطفال جلسات الأولياء التي يطلق عليها في القرية تداول الأولياء. وفي جلسات الأولياء هذه تعطي الحاضنة الآباء تعليماتٍ يطلق عليها في القرية اقتراحات حول كيفية معاقبة أطفالهم. والعقوبة الأكثر اقتراحاً والتي تلائم كلَّ تجاوز هي الحبس في المنزل، فلا يُسمح للأطفال بعد وصولهم من الروضة إلى المنزل بالخروج إلى الشارع أسبوعاً إلى أسبوعين.

وبجانب روضة الأطفال ساحة السوق. وفي ساحة السوق كانت تباع وتشرى قبل سنين الخراف والماعز والأبقار والخيول. أما الآن فيأتي مرة في الربيع ثلةٌ من الرجال الملثمين من القرى المجاورة ينقلون على العربات صناديقَ خشبيةً فيها خنانيص. وتباع الخنانيص وتشرى بالزوج فقط. وارتباط السعر بالوزن أقل منه بالعرق الذي

يدعى في القرية نوعاً. ويصطحب الشارون معهم جاراً أو واحداً من الأقرباء، فيفحصون بنية الخنانيص التي تدعى في القرية قواماً: إن كان لها أرجل وآذان وأبواز وهُلَب قصيرة أم طويلة، وإن كان لها أذناب لولبية أم مهدّلة. وعلى البائع أن يودع الخنانيص ذات البقع السوداء والخنانيص مختلفة ألوان العينين التي تسمى في القرية خنانيص النحس، في حال أبى أن يبيعها بنصف الثمن، ثانية في الصناديق الخشبية ويردّها.

وفيما عدا الخنازير يربي أهل القرية كذلك الأرانب والنحل والطير. وتسمى الطيور والأرانب في الجرائد حيوانات صغيرة، والناس الذين يربون الطيور والأرانب يعدّون مربي الحيوانات الصغيرة.

ولدى الناس فيما خلا الخنازير والحيوانات الصغيرة أيضاً كلاب وهررة لم يعد الناس يميزونها لأنها تتناسل فيما بينها منذ عشرات السنين. والهررة أشد خطراً من الكلاب، فهي تتناسل، وهو ما يسمى في القرية سفاداً، مع الأرانب كذلك.

وكان لكبير القرية الذي نجا من حربين عالميتين بل ومن غير ذلك وغير أولئك هارون أحمر ضخم. وقد أنجبت أرنبته، وهو ما يدعى في القرية وضعاً، ثلاثَ مراتٍ متتابعة صغاراً لها بقع رمادية وحمراء تموء، فيغرقها كبير القرية في كلّ مرة. وإثر المرة الثالثة شنق كبير القرية هارونه. وقد أنجبت أرنبتُه مذ ذاك مرتين صغاراً مخططة، فشنق الجار هارونه المخطط إبان المرة الثانية. وفي آخر مرة كان لدى الأرنبة في

العش صغارٌ طويلة الشعر بجعدته، إذ إن هاروناً من الزقاق المجاور أو من القرية المجاورة لديه شعر كذاك، وهو هجين من كلب من كلاب القرى وهرة من هرّاتها. وبما أن كبيرَ القرية ما عاد يعرف من أمره مخرجاً ولا منفذاً فقد ذبح أرنبته ودفنها، إذ لم يرد أن يأكل اللحم، لأن بطنها منذ سنوات لم تعرف سوى الهررة. وقد أكل كبير القرية في إيطاليا، وهذا أمر تعرفه القرية برمتها، لحمَ القطط أثناء سجنه الحربي. لكنّ هذا لا يعني البتة، على ما يراه كبير القرية، أنه سيضطر إلى احتمال عهر أرنبته هذا، لأن قرية صوابية والشكر لله لا تقع في إيطاليا كما يؤكد، رغم أن لديه انطباعاً أحياناً أنّها قد تقع كذلك في جزيرة سردينية. لكنّ أهل القرية يرجعون هذا الانطباع إلى تصلّب شرايينه قائلين إن الدم قد صار سميكاً في رأسه.

وبجانب ساحة السوق المجلس الشعبي الذي يُدعى في القرية مقر البلدية. ومبنى مقر البلدية مزيج من بيت مزارع وكنيسة قرية. فمن بيت المزارع له الشرفة المفتوحة المحاطة بمتراس مقوى بالدعائم، والكوّات المعتمة، والأبجورات السحابة البنية، والجدران وردية الطلاء، والقاعدة خضراء الطلاء. ومن كنيسة القرية له الدرجات الأربع عند المدخل، والتقويسة فوق الباب، والباب الخشبي الأصمّ ذو المصراعين وقضبان الرؤية، والسكون في الغرف، وفوق أرضية السقف البومات والخفافيش التي تسمى في القرية الهوام.

ويعقد رئيس البلدية الذي يدعى في القرية قاضياً جلساته في مقر البلدية. وبين الحاضرين مدخنون يدخنون ذاهلين، وغير مدخنين لا

يدخنون وينامون، وكحوليون يدعَون في القرية سكيرين ينصبون الزجاجات تحت الكراسي، وهنالك أيضاً غير الكحوليين وغير المدخنين الضعيفو الفهم، وهو ما يدعى في القرية الاستقامة، حيث يتصرفون كما لو كانوا ينصتون، لكنهم يفكرون في شيء آخر تماماً، إن تسنى لهم التفكير أصلاً.

كذلك الغرباء الذي يقدمون إلى القرية يقصدون مقر المجلس الشعبي، لأنهم إذا ما ضاقت الحال بهم ذهبوا إلى الفناء الخلفي وبالوا، وهو ما يسمى في القرية تطيير الماء. والمرحاض القائم في الفناء خلف المجلس الشعبي مرحاض عمومي، إذ لا باب له ولا سقف. وبرغم التشابهات الكثيرة بين المجلس الشعبي والكنيسة لم يسبق أبداً أن ذهب غريب إلى الكنيسة بدلاً من المجلس، فالكنيسة مميزة بصليبها والمجلسُ بلوح الشرف المسمى في القرية صندوق الشرف. وفي صندوق الشرف جرائدُ معلقةٌ تُبدّل كلما اصفرت بالكامل وامتنعت قراءتُها.

وبجانب المجلس الشعبي يقع محل مسرّحِ الشعر المسمى في القرية ركن تسريح الشعر. وفي ركن التسريح كرسي قائم أمام مرآة، وموقد فحم في زاوية، ومقعد خشبي إلى جدار يجلس عليه الزبائن المدعوون في القرية ضيوف الحلاقة وينامون، وهو ما يدعى في القرية انتظاراً.

وليس من بين ضيوف الحلاقة من تجاوزت سنه المائة. وفيما عدا حلاقة الذقن يقص الحلاق لجميع الضيوف شعرهم كذلك، حتى

أولئك الذين لم يعد لهم شعر. ويسنّ المسرّح الذي يُدعى في القرية حلاقاً موس الحلاقة بعد كلّ حلقةٍ على حِزامٍ جلدي يتذبذب ويأخذ بالأزيز، ثم يمسح وجوهَ الضيوف الأحدث سناً الذين لم يبلغوا السبعين بالعطر، والأكبر سناً بالإسبيرتو، لأنه من غير اللبِق، وهو ما يُقال له في القرية من غير الملائم، أن يعبق رجل عجوز برائحة العطر، وهو ما يسمى في القرية الإنتان برائحة العطر.

وبجانب محل الحلاقة ومقابل المجلس الشعبي صُبّت رقعة من الإسمنت تدعى في القرية ساحة عيد الكنيسة. وعلى هذه الرقعة يرقص الأزواج المحتفلون بالعيد.

ومنذ أخذت القرية بالتضاؤل؛ لأن الناس إذا لم يهاجروا إلى مكان آخر فإنهم يرحلون على أقل تقدير إلى المدينة، تزداد احتفالات عيد الكنيسة حجماً والأردية ابتهاجاً، حتى إن الجرائد لابدّ أنْ تصف بالتفصيل كلّ عيدٍ في كلّ قرية. وإن لم تُسمّ القرية في الجرائد بلدية كبيرةً، فبلدية في أضعف الأحوال. وبما أن كلّ عيد يأتي في كل قرية في يوم أحد آخر، فإن جميع الأزواج المحتفلين في قرية ما يذهبون قبل عيدهم الخاص أو بعده، والمسمى في القرية احتفال عيد الكنيسة، إلى العيد في القرية المجاورة كذلك، وهو ما يسمى في القرية المساندة. لكن بما أن جميع القرى في منطقة البانات[5] قرى متجاورة يشترك الأزواج ذاتهم في جميع الاحتفالات، والمتفرجون ذاتهم، والجوقة الموسيقية ذاتها. وبفضل احتفالات عيد الكنيسة

(5) منطقة تاريخية تقع اليوم في رومانيا وصربيا والمجر.

يعرف شبيبة البانات بعضهم بعضاً، وهكذا تُعقد غالباً زيجات بين القرى إن سلّم الآباء بأن الاثنين وإن لم يكونا من القرية نفسها لكنهما في نهاية المطاف ألمانيان.

وبجانب محل الحلاقة تقع المؤسسة الاستهلاكية التعاونية التي تُدعى في القرية متجراً وتبلغ من المساحة خمسة أمتار مربعة وتعرض طناجر الطبخ والإيشاربات والمربى والملح والفانلات القطنية والأخفاف المنزلية وكُدس كتب من مطلع الستينيات. والبائعة مريضة سكر وهي بالتأكيد من القرية المجاورة لأن هناك ركناً للفطائر والحلويات واسم فرانشيسكا.

في قريتنا تسمى النساء ماجدلينا، وهو ما يقال له في القرية ليني، أو تيريزيا، وهو ما يقال له في القرية ريسي. ورجال قريتنا يسمون ماتياس، وهو ما يقال له في القرية ماتس، أو يوهان، وهو ما يقال له في القرية هانس. وأسماء العائلة في قريتنا أسماء مهن كحذّاء وخيّاط وعرباتي، وأسماء حيوانات كذئب ودبّ وثعلب. وهناك في قريتنا فيما خلا هذه الأسماء اسمين آخرين كشاودر وشتومبر لا يعرف أحد من أين جاءا. وقد أثبت بعضٌ من يُدعى بالباحثين اللغويين في البانات من خلال ما يدعى أبحاثاً لغوية أن هذين الاسمين نشأا من تحريف أسماء أخرى. وفيما خلا هذه الأسماء هناك في القرية أسماء سخرية تدعى في القرية ألقاباً، منها أبو الزنخ واليد المقبوضة.

وبجانب المؤسسة الاستهلاكية التعاونية يقع البيت الثقافي. وفي البيت الثقافي تُعقد أعياد الكنيسة عندما تمطر السماء، والأعراس

حين يهطل المطر أو البرد أو الثلج أو يصفو الجو. وللبيت الثقافي كذلك أربع درجات، وباب خشبي ثخين أصم مع قضبان للرؤية، ومدخل مقوّس، وكوّات معتمة صغيرة، وأبجورات سحابة بنية، وهوام على أرضية السقف. وفي حجرة صغيرة مظلمة كالقبر كان يقوم فيها من قبل جهاز تسليط الضوء من أجل السينما، ومذ لم يعد أحد يذهب إلى السينما وأخذت الأعراس في الازدياد، رُكّب موقد كبير يسمى في القرية الموقد الاقتصادي وجُهِّز بمرجل كبير. ومنذ استبدلت الأرضية الخشبية التالفة بأرضية الباركيه[6] يرقص ضيوف العرس المسنّون كذلك الذين يقال لهم في القرية أزواج العرس رقصة البولكا من جديد بدل رقصة الفالس والفوكستروت.

وبجانب البيت الثقافي يقع البريد. وللبريد موظفان: ساعي البريد المسمّى في القرية حامل البريد، وموظفة الهاتف المسماة في القرية ساعية البريد، وهي زوج ساعي البريد. وتقوم ساعية البريد بختم البريد الوارد، وبعد تفريغ صندوق البريد مساءً تقوم بختم البريد الذي سيُرسل، فهي لا تنشغل بالمهاتفة إلا في القليل النادر. وتعرف ساعية البريد جميع الرسائل كراحة يدها وتعرف لذا أخفى خبايا أهل القرية.

وبجانب البريد يقع الدرك. ويتردد الدركي المسمى في القرية بالأزرق من حين إلى حين على غرفة صغيرة تدعى في القرية مكتباً تقوم فيها طاولة فارغة وكرسيّ، فيتجه إلى النافذة فاتحاً إياها ليهوي

(6) أرضية خشبية من ألواح قصيرة نحيلة تُجمع في شكل معين.

الغرفة إلى أن ينتهي من تدخين سجائره الأجنبية، فيغلق النافذة ليعلّق القفل على الباب ثانية قاصداً البريد. ومع ساعية البريد يجلس الساعات الطوال خلف المنصّة يسرد الأخبار.

وللقرية ثلاثة أزقة جانبية تدعى في القرية أزقة خلفية، إذ يقع أحدها خلف المدرسة منتهياً بالمؤسسة الإنتاجية الزراعية، ويقع الثاني خلف المؤسسة الاستهلاكية التعاونية منتهياً بالمزرعة الحكومية، ويقع الثالث خلف البريد منتهياً بالمقبرة. والأزقة الجانبية هذه أنساق من الدور.

والدور في أنساق الدور مطليّة جميعها باللون الوردي نفسه، ولها القواعد الخضراء ذاتها والأبجورات السحابة ذاتها. وهي لا تتميز إلا بلَوافت أرقام المنزل. وفي هذه الأزقة تُسمع في الصباح الباكر قبلَ انقشاع الغسق الدجاجاتُ مقرقرة والإوزات مقوقية هاسّة. فإذا اكتمل النور في الخارج، وهو ما يقال له في القرية وضح النهار، طغت على القرقرة والقوقأة والهس أصوات النساء اللواتي يقال لهن في القرية ربات البيوت، ورحن يحدثن بعضهنّ بعضاً من فوق الأسيجة والحدائق، وهو ما يقال له في القرية تجاذب أطراف الحديث. والحدائق دائماً معزوقة مهذبة من جديد، وهو ما يسمى في القرية رعاية.

والدور في القرية نظيفة؛ فربات البيوت ينظفن ويمسحن ويكنسن وينظفن بالفرشاة اليوم بطوله، وهو ما يقال له في القرية صاحبة بيت حسنةُ التدبير. وفي أيام السبت تُعلّق من على الأسيجة السجادات

الفارسية التي تبلغ نصف الفناء حجماً وتسمى في القرية الفارسية. وهي تُقرع وتنظف بالفرشاة وتمشّط لكي تعاد بعد ذلك إلى الغرفة الاستعراضية المسماة في القرية الغرفة الإضافية. وفي الغرفة الإضافية أثاث مصقول داكنٌ من خشب الكرز أو الزيزفون عليه كسوةٌ من خشبٍ جوزيّ أو وردي اللون.

وعلى هذا الأثاث قطع للزينة تسمى في القرية مجسّمات، وتصوّر حيوانات مختلفة انطلاقاً من الخنافس والفراشات ووصولاً إلى الجياد. وأكثر ما يحبّ الناس منها الأسود والزرافات والفيلة والدببة القطبية، إذ إن هذه الحيوانات لا توجد في منطقة البانات التي تسمى في الجرائد ريف البانات وفي القرية الداخل، ولكنّها تعيش في بلدان أخرى تسمى في القرية الخارج.

منذ سنوات وكبير القرية يتمنى لو يسافر إلى الخارج الذي يسمى في القرية الغرب ليزور صديقاً حميماً من أيام السجن الحربي فيرى أسداً حقيقياً.

على النوافذ تتدلى ستائر بيضاء من النايلون تدعى في القرية ستائر الدانتيل. والكثير من ربات البيوت يجعلن أقرباءهن يحضرون لهن ستائرَ الدانتيل هذه من خارج البلاد ثم يقابلن الهدية الجميلة ببضعة كيلو غرامات من النقانق المنزلية أو بفخذ خنزير مدخّن. وهن يقلن إن الستائر تستحق ذلك، فهي تدوم، لأن الغرف غير مأهولة، وهو ما يقال له في القرية محفوظة، كذلك لأبنائهن وأحفادهن الذين يسمون في القرية أبناء الأبناء.

وللدور أفنية مقسمة إلى قسمين تسمى في القرية الأفنية الأمامية والأفنية الخلفية. وفي الأفنية الأمامية تحت عريشة الكرمة العالية علوّ الدار، وبين باقات أزهار القطيفة تنتصب تماثيل أقزام الحدائق الملونة وضفادعِ الشجر الكبيرة الخضراء التي تدعى في القرية ضفادع الحدائق. وفي الفناء الخلفي الطيرُ والحجراتُ المبْخِرة المظلمةُ التي يُطبخ فيها ويؤكل ويُغسل ويُكوى ويُنام والتي تسمى في القرية المطبخ الصيفي. ويقسّم أهل القرية الأسبوع حسب برنامج الطبخ إلى أيام للحم وأخرى للدقيق. ويأكل أهل القرية طعامهم دَسِماً مالحاً مفلفلاً. حتى إذا منعهم الطبيب من أكل الدسم والملح والفلفل أكلوا طعامهم خالياً من الدسم والملح والفلفل قائلين وهم يأكلون أنّ لا شيء يرقى على الصحة والحياة تفقد حلاوتها حين لا يُسمح لهم بأكل كل ما يشتهون، واللقمة الهنية تجعل العيشة هنية.

وخلف الأزقة الجانبية تمتد حقول المؤسسة الإنتاجية الزراعية والمزرعةِ الحكومية. والحقول كبيرة سهلية. وتعاني النباتات في الشتاء الصقيع، وهو ما يقال له في القرية التجمّد، وفي الربيع الرطوبة، وهو ما يقال له في القرية الفساد، وفي الصيف الحرارة، وهو ما يقال له في القرية الجفاف. وموسم الحصاد في الخريف موسم أمطار يسمى في الصحف حملة الحصاد التي تُختم في الصحف في شهر تشرين الأوّل ولا تكون قد استُكملت بعدُ في القرية في كانون الأول. والثغرات العميقة التي يراها الناظر في الحقول شتاءً ليست أقنيةَ المحاريث بل مغاطات جزمات المزارعين الذين يغوطون في

التراب أثناء الحصاد إلى أعلى الجزمة. ويقول بعض المزارعين إنه لم يأتِ منذ التأميم المسمى في القرية استيلاء موسمُ حصاد حقيقي. ويقول المزارعون إنه منذ الاستيلاء لم تَعدْ حتى أصلحُ تربة تساوي شيئاً. ويدّعي كبير القرية بأن بين تربة حديقة الدار وتلك التي في الحقل فرقاً شاسعاً كبيراً، وهو فرق كبيرٌ كلَّ الكبر كأنْ لم تكن هذه التربة تربة واحدة يوماً.

والتربة المنبسطة حول القرية هي تربة المؤسسة الإنتاجية الزراعية والمزرعة الحكومية. وتقع أرض المؤسسة الزراعية خلف الزقاق الخلفي الأول، وأرض المزرعة الحكومية خلف الزقاق الخلفي الثاني.

وتتألف المؤسسة الزراعية من رئيس هو أخو رئيس البلدية، وأربعة مهندسين، منهم واحد مسؤول عن الأعشاب الضارة، وواحد عن البقرات السبع والخنازير الأحدَ عشرَ، وواحد عن ثلاثة هكتارات من الخيار وهكتارين من البندورة، وواحد عن الجرارات الثلاثة، ثم من سبعة مزارعين يعملون لصالح المؤسسة الزراعية تتجاوز أعمارهم الخمسين ويدعون في القرية أعضاءً بينما يخاطبهم المهندسون بالفتيات والغلمان. وفي الجلسات يُرجع المهندسون قلةَ المحصول وديون المؤسسة إلى التربة شديدة الملوحة بالنسبة للحبوب، قليلة الملوحة بالنسبة للخضراوات. ويقولون إنّ التربة صالحةٌ للشوك واللبلاب اللذين يخنقان الحبوب والخضراوات التي يدعونها المهندسون زرعا. ويقولُ المهندس المسؤول عن الأعشاب

الضارة إنّ أرض المؤسسة الزراعية شديدة الحموضة واللبود.

وتتألف المزرعة الحكومية من رئيس يقال له في القرية مديراً، وهو صهر رئيس البلدية وأخو رئيس المؤسسة الزراعية، وخمسة مهندسين منهم واحد مسؤول عن البقرات التسع والخنازير الخمسة عشر، وواحد عن خمسة هكتارات من الجزر وعشرة هكتارات من البطاطا، وواحد عن الحبوب، وواحد عن بستان الفاكهة الذي يدعى في القرية مشتلاً، ثم عن مئة عامل يقطنون أقنان الدجاج المهجورة في المزرعة الحكومية. ويرجع مهندسو المزرعة الحكومية قلّة الحصاد إلى التربة شديدة الملوحة بالنسبة للحبوب، قليلة الملوحة بالنسبة للخضراوات وأشجار الفاكهة. وصالحةٌ هذه التربة للخشخاش المنثور وأزهار الترنشاه التي تسطع ألوانها في الحقل وتسطع كما يقول المهندسون باهرةً في الصور كذلك. وقد حصل، وهو ما يقال له في القرية كسب، في العام الماضي بفضل ألوان الخشخاش المنثور والترنشاه الساطعة، المهندسُ السابق الذي كان مسؤولاً عن الأعشاب الضارة على الجائزة الأولى لصورة ملونة في معرض وديّ للمصورين الرومانيين والبلغاريين في مدينة كرايوفا[7]. وكان مضمون الجائزة رحلةً إلى إيطاليا. ومنذ تلك الرحلة وقائد فرقة العمل، وهو ابن عمّ رئيس البلدية ورئيس المؤسسة الزراعية، وابن خال مدير المزرعة الحكومية، مسؤول عن الأعشاب الضارة.

وخلف الزقاق الخلفي الثالث تقع المقبرة. وللمقبرة سياج من

(7) مدينة في رومانيا.

البرقوق البري وبوابة حديدية ثقيلة سوداء. وعند نهاية الطريق الرئيسة يقوم الصومع وهو نسخة مصغرة عن كنيسة القرية ويبدو كمطبخ صيفي مرتفع بعض الشيء.

وقد بنى صومع المقبرة، وهو ما يقال له في القرية تبرّع، الجزّارُ السابق قبل الحرب العالمية الأولى الذي سافر إلى روما بعد نجاته من الحرب حيث رأى البابا المسمى في القرية الأب المقدس. وقد ماتت بعد أيام من انتهاء بناء هذا الصومع زوجه التي كانت تسمى في القرية جزّارة مع أنها كانت خياطة، فدُفنت في مدفن العائلة تحت الصومع، وهو ما يقال له في القرية ووري الثرى.

وهناك تحت الصومع فيما عدا الديدان والخلدان الموجودة في القرية بكاملها حيايا كذلك. وقرفاً من هذه الحيايا ما يزال الجزّار اليوم حياً وقد صار كبيرَ القرية.

وجميع الموتى إلا الجزارة يرقدون، وهو ما يقال له في القرية يستريحون، فيْ قبور. لقد أكل موتى القرية حتى الموت، وشربوا حتى الموت، وهو ما يقال له في القرية العمل حتى الموت. والاستثناءات تمثُل في الأبطال الذين يُفترض أنهم قاتلوا حتى الموت. والمنتحرون لا وجود لهم في القرية، فجميع أهل القرية يتمتعون بفهم سوي لا يفارقهم حتى في الشيخوخة.

وقد دُفن الأبطال المسمون في القرية شهداء لإثبات أن موتهم لم يكن سدى، وهو ما يقال له في القرية ملاقاة الموت بطلاً، إذ يفترض أنّهم قد طلبوه، في المقبرة ذاتها مرتين: مرة في قبر العائلة المعنية،

ومرة تحت صليب الأبطال. وهم في الواقع يرقدون في قبر جماعي في مكان ما، وهو ما يقال له في القرية التخلف في الحرب. وللشهداء غالباً مَسالّ بيضاء أو رمادية على تلال قبورهم. وللموتى الذين كان لهم حقل قبل سنين الآنَ صلبان مرمر بيضاء فوق رؤوسهم. أما أُجراؤهم الذين كان يقال لهم في القرية تبعة فلهم صلبان معدنية مطلية بالقصدير، وعاملاتهم العازبات اللائي متنَ عذارى وكان يقال لهن في القرية خادمات لهن صلبان مصبوغة سوداء فوق رؤوسهن الميتة. وهكذا يرى الناس في المقبرة عندما يُدفن أحدهم إن كان أجداده، الذين يقال لهم في القرية أسلافا، أسياداً أم تبعاً.

وأكبر صليب هو صليب الأبطال. وهو أعلى من صومع المقبرة. وعليه سُجّلت أسماء جميع أبطال جميع جبهات جميع الحروب، حتى المفقودون الذين يقال لهم في القرية المخطوفون.

وأُغلق ورائي البوابة السوداء. وخلف المقبرة يمتد المرج الذي يقال له في القرية المرعى. وفي المرعى تنتصب أشجار متفرقة.

وأتسلّق شجرة قائمة في طرف المرج لكنها ربما قامت في وسط القرية كذلك، إن لم تقم أصلاً في وسط القرية. وأتشبّث بكلتا يدي بغصن مشاهدة كنيسة القرية المجاورة وعلى درجتها الثالثة دعسوقة تنظّف جناحها الأيمن.

الفُرْق الألماني
والشارب الألماني

عاد حديثاً أحدُ المعارف من قرية تقع في المقربة. وقد أراد أن يزورَ أبويه هناك.

وقال إن الغسق لا ينقشع في هذه القرية طيلة النهار، ولا يطلع نهارٌ ولا يحل ليل، وليس ثمة من غَسقِ صبح ولا غَسقِ مساء، والغسق في وجوه الناس.

ولم يتعرّف على أحد مع أنه قد عاش في هذه القرية سنين عدة. جميع الناس كانت لهم الوجوه الشاحبة نفسها. وكان يمرّ بهذه الوجوه في طريقه يحيّيها فلا يلقى جواباً، ويصطدم بلا انقطاع بالجدران والأسيجة. وكان أحياناً يسير عبر دورٍ بنيت على الطريق بالعرض، فتنصفق خلفه الأبواب. فإذا لم يعد أمامه من باب عرف أنّه واقف في الشارع من جديد. وكان الناس يتحدثون فلا يفهم لغتهم. ولم يكن يميّز إن كانوا يسيرون بعيداً منه أم قريباً إلى جانبه، أو إن كانوا يتحركون مقبلين عليه أم منصرفين عنه. وسمع عكازاً تدق على حائط، فسأل رجلاً أين يقيم أبواه. فنطق الرجل جملة طويلة تنسجم فيها قوافي كلمات عديدة مشيراً بعكازه إلى الفراغ.

تحت مصباح كهربائي كانت تتدلى لوحة كُتب عليها محلّ الحلاقة. أفرغ الحلاق من الباب قصعة قصدير فيها ماء ورغوة بيضاء على الشارع. ودخل صاحبنا الغرفة وقد جلس على المقاعد رجالٌ عجّز

نائمين. حتى إذا جاء دور أحدهم ناداه الحلاق باسمه فاستيقظ من نداته بعضُ النائمين مرددين سوية الاسمَ المنادى. فاستيقظ المنادى، وبينا هو يجلس على الكرسي المنتصب أمام المرآة عاد الآخرون ليغطوا في النوم من جديد.

سأل الحلاق: فَرْق ألماني؟

فأومأ المسؤول برأسه ناظراً بوجوم إلى المرآة، والرجال على المقاعد نائمون كأنهم لا يستنشقون هواء، وجالسون بلا حراك كجثث، وصوت المقص يتردد في الغرفة.

أفرغ الحلاق من الباب قصعة القصدير على الشارع، وصاحبنا واقف إزاء تيار الماء، مستنداً بظهره إلى إطار الباب. وضمّ الحلاق شفتيه كما لو أراد أن يصفّر، لكنه لم يصفر، بل رمق وجوه النائمين بحزم مقرقعاً بلسانه. وفجأة نادى الحلاق اسم والده، فاستيقظ بعض الرجال مرددين اسم والده معاً بأعين منشقّة، فينهض رجلٌ شاحب الوجه أسودُ الشارب مُلْتفّهُ يقبل على الكرسي. وغط الرجال على المقاعد في النوم من جديد.

سأل الحلاق: فَرْق ألماني؟

فقال الرجل: فَرْق ألماني وشارب ألماني. وكان المقص يُسمع في الغرفة، والشوارب الملتفّة تهوي أرضاً.

وسار صاحبنا على مشطي رجليه نحو الكرسي قائلاً أبي، والرجل على الكرسي يحدّق واجماً في المرآة. فربّتَ بيده على كتفه والرجل على الكرسي يحدق في المرآة في وجوم أكبر. وأمسك

الحلاق بالمقص مفتوحاً بشدة في الهواء ليلفّ يده الممتدة جاعلاً إياه يدور دورة على إبهامه. فعاد صاحبنا إلى مكانه مسنداً ظهره ثانية إلى إطار الباب. وجعل الحلاق يمرّ بشعر الفرشاة مفرود الأصابع على رقبة الرجل على الكرسي، فثار غبار رمادي بين الوجهين أمام المرآة. وأفرغ الحلاق من الباب قصعة القصدير على الشارع، والرجل ينسل من الباب بإزاء تيار الماء. ومضى صاحبنا على مشطي رجليه إلى الشارع والرجل يسير أمامه، أو لعلّه كان رجلاً آخر؟ وحلّ الغسق أمام وجهه، ولم يعد يرى إن كان الشخص يأتي مقبلاً عليه أم يمضي مبتعداً عنه.

ثم لاحظ أن الرجل كان يمضي مبتعداً عنه، غير أنّ مضيه تراءى له كانحدار مع أنّ الشارع كان مستوياً. وارتطم صاحبنا بأسيجة وجدران عديدةٍ ماضياً عبر دورٍ مبنية على الشارع بالعرض نحو محطة القطار.

وكان في ظهره أثناء السير ألمٌ شديد فعرف أنه أطال الاستناد إلى إطار الباب. وشعر بألم شديد في الأصابع فعرف أنّه قد فتّح أبواباً كثيرة. وحين اقترب القطار من المحطة شعر بألم شديد في الحلق فعرف أنه كان طيلة الوقت يحدث نفسه.

ولم يرَ خفيرَ المحطة، لكن الخفير قد صفّر صفيراً طويلاً حاداً. وأثار القطار رياحاً كثيرة آخذاً بالاقتراب. وصفّر القطار صفيراً قصيراً أجشّ، وقد انتصبت بين الغسق وبخاره شجرة بحذاء السكك. وكانت الشجرة جافةً وما تزال اللافتة على جذعها. ومن

القطار السائر رأى صاحبنا أنّه لم يعد على اللافتة اسم القرية كما في السابق وإنما (محطة القطار) فحسب.

حافلة النقل الخارجي

صاحت امرأة كانت تقف في أول المقدمة خلف السائق: غيرليندا، لماذا تدعينَها تشرب، إنك تجلسين بجانبها. فرفعت طفلةٌ بدينة خرساء ناظريها إلى أعلى. وقالت المرأة لرجل متوقّد الوجنتين حُمْرةً يتمسّك بيده بقضيب رفّ الأمتعة مارّا بالأخرى من جبهته على شعره فرقبته بسبابة لا ظفر لها: إنك عديم الفهم يا فرانتس.

انظر كيف تتصبب عرقاً، عبثاً تُعطى قميصاً ناصعاً، فأنت حينئذٍ لست آدميا.

جعلت الأقاحي ترتجف مطوية في جريدة على رفّ الأمتعة، وأزهار يابسة جافة تتداعى في المنعطفات.

فقالت امرأة: لم يكن ينقصنا سوى الأزهار، هذه الأزهار الولاشية[8] التقليدية، إنها نتنة الرائحة حتى إنها تجلب الغثيان.

قال رجل: هؤلاء الصوابيات يملأن بقرقرتهن ثانية الحافلة بكاملها.

وكان يجلس على العجلة الاحتياطية غجري يدسّ في شدقه الأيسر بذر اليقطين باصقاً القشور من الشدق الأيمن.

إنهم يلتهمون كلّ شيء. بالأمس كان في القرية ثلاثة منهم بسيارة سوداء. الثلاثة كلّهم يلبسون البدلات. كانوا يجمعون الدجاج النافق، لقد سمعوا عن مرض الدجاج. عند أمي نفقت دجاجاتها

(8) منطقة تاريخية تقع اليوم في جنوب رومانيا.

الثلاث. الدجاجة لا يُرى عليها شيء. ثم تقرقر وتنقلب، وإذا هي نافقة. هم عندهم سيارات، أما واحدنا فلا يجني هذه النقود كلّها أبداً. واحدنا لا يلتهم الدجاج الميت لكنه دائماً مريض، ويلتهم طعامه غيرَ مملّح ولا مفلفل ولا محلّىً ولا دسم.

زوجي كان بالأمس عند الحلاق، فهو يقتلع الآن الأسنان في القرية. وطبيب الأسنان لم يعد يأتي. لقد قال إن نخور الأسنان مرض مستفحل في القرية، فحتى الأطفال يصيب النخر أنيابهم.

قلتُ: ودائماً مئة ليو من أجل سن، كفانا الآن من هذه الجسور في بوزك، قلتُ فلتقلعها جميعاً واصنع لنفسك طقم أسنان.

فرانتس، خبئ زجاجة الشنبص وخلّصنا. هذا الشراب ألقى بمن مثله في بطن الأرض.

إنهم لا يدعون أحداً يقول لهم شيئاً، زوجي كان يمكن أن يكون الآن حياً، لكن الكلام معهم عبث.

بل هذا أحسن عندما يموتون، حينها تجد الواحدة منّا راحتها.

أجل، لكنهم لا يموتون إلا وقد مصّوا دمنا مصاً.

أخذ عصيُر عنب أحمرُ قانٍ يتقاطر من رفّ الأمتعة على قفا رأسٍ، وقد شكّل على وسط الرأس ثغرة دبقة كعشّ. فسأل من تسرّب العصير على جلدة رأسه: لمن هذا الكيس؟ فلم ينطق أحد بكلمة!

فدفع الزجاج جانباً قاذفاً بالكيس من الشباك.

وقالت امرأة بصوت مكبوت: ياللك من خنزير. فلما نظر نحوها

قالت بكامل صوتها: الكيس ليس لي، لكنك مهما يكن خنزير.

على أحد الجانبين كانت الستائر مغلقةً والسماء حمراء والعيون تتوجع من خَمارها.

وجعلت الطفلة البدينة الخرساء تلوك ضفيرتها، فرمقتها المرأة المحاذية قائلة: مه. فأشاحت الطفلة بناظريها عاضة في الضفيرة أعمَق من ذي قبل.

وراحت الحافلة تتدحرج مارة بأسوار صاخبة الحمرة لم تكن لها نوافذ لكن لافتات للشركات عليها أحرفٌ سوداءُ كبيرةٌ تعلوها نقط سوداءُ كبيرة، ولم تشكّل كلمة قط.

قال رجل: عندهم الأسيجة كذلك حمراء.

في الوردية الليلية أمس قطع مكبس الخمسة أطنان يدي شاب كلتيهما.

وقد صرف المعلّم عامل حديد برفقة زجاجة شنبص وشدّ المصابيح الناقصة، وإذ بهم يلقطون العامل في غرفة تبديل الثياب وهو يصبّ الشنبص للشاب، فانهالوا ضرباً عليه، وهو يرقد في المشفى.

أرخت الطفلة البدينة الخرساء رأسها على زجاج النافذة مثغثغة مع نفسها لتعضّ على لسانها حين مرت الحافلة على حفرة في الطريق المعبدة، فجعلت تثغثغ باكية.

الذرة تفسد ملقاة في الحقل، والخنازير الكبيرة أكلت أذناب الخنانيص، لا بد أنه مرض أو تناسل داخلي.

في الربيع ذاب ثلج كثير، أكثر مما هطل. حينها نفقت الخرفان

كلّها إلا زوجاً واحداً ذُبح قبل ذلك. وكان لهذا الزوج ورم في الدماغ. وقد مات راعي الخرفان سَقَماً.

فرانتس، لماذا تدعها تأكل البقول وأنت واقف بجانبها.

قال الرجل: ابصقيها يا غيرليندا، إنها مسروقة.

فابتلعت الطفلة البدينة الخرساء ما في فمها سريعاً لتنظر ضجرة في الحقيبة الكبيرة التي كانت مملوءة بالبقول، فأغلق الخبير الزراعي سحاب الحقيبة على عجل.

أخذت امرأة تضحك بعصبية، وقالت: إنهم يتعلمون في الجامعات السرقة. فرانتس، ألبسها ألبسها معطفَها.

تعالي إلى هنا يا غيرليندا، لن تجدي كمّ المعطف.

ارتدى الغجري على العجلة الاحتياطية جوربيه منسلّاً في حذائه.

ونظر السائق في الحافلة الخالية وقد أصابته «الحازوقة».

وقالت امرأة: زرّي أزرارك يا غيرليندا.

تحياتنا الحارة من ساحل البحر الأسود. لقد وصلنا على ما يرام، والجو لطيف والطعام طيّب. المقصف في أسفل الفندق، والشاطئ يحاذيه عن قرب.

وأمي لا يسعها ترك بكرات شعرها في البيت، ولا رداءِ نوم أبي وروبِ أمي وخفِّها المنزلي ذي الشرابة الحريرية.

أبي الوحيدُ الجالس في المقصف بالبدلة وربطة العنق؛ لأن أمي تأبى غير ذلك.

الطعام الجاهز مستقرّ على المائدة والدخان يتصاعد منه ويتصاعد، والنادلة لطيفة مرة أخرى مع أبي، وذاك طبعاً ليس مصادفة. وتفرك أمي وجهها، وأنفها يرشح، وعِرْق ينتفخ في عنقها، وخصلة شعر تقع في عينيها، وفمها يرتعش، وتغمر أمي ملعقتها عميقاً في الحساء.

ويهزّ أبي كتفيه مواصلاً «البحلقة» في النادلة، مشرشراً الحساء في طريقه إلى فمه، مدبّباً رغم ذلك شفتيه أمام الملعقة الفارغة ليرشف داساً الملعقة حتى عنقها في فمه والعَرَق على جبهته.

ولم يلبث الصغير أن قلب الكأس ليقطر الماءُ إلى الأرض عبر ثوب أمي، ولم يلبث أن دسّ الملعقة في حذائه، ولم يلبث أن قطف الأزهار من المزهرية ونثرها على الخس الأخضر.

ويكاد صبر أبي ينفد، فتستحيل عيناه شاحبتين باردتين كالجليد، وتلتهب عينا أمي وتسخنان. إنه في النهاية طفلك، تماماً كما هو

طفلي. ويمرّ الأب والأم والصغير من عند كشك الجعة.

فيخفف أبي من مشيته، وتقول أمي إن شرب الجعة أمر غير وارد، لا، لا حديث في ذلك بتاتاً.

ويكره أبي الطفلَ الذي ما لبث أن احترقت بشرته من اليوم الأول جراء سفعة الشمس فأمست حمراء ملتهبة، وهو يشعر بأمي تجرّ ساقيها خلفه، ويدري من دون أن يلتفت أن هذا الحذاء كذلك شديد الضيق على قدميها حتى إن لحمها ليبرز منه كذلك كما يبرز من جميع الأحذية الأخرى، وأن لا حذاء في الدنيا واسع بما يكفي لقدميها هاتين ولأصبع رجلها الصغير الذي يظل معقوفاً مكشوطاً مضمّداً.

وتجرّ أمي الطفل بجانبها جراً قائلة جملة بينها وبين نفسها طويلة طول الطريق: إن النادلات عاهرات ومخلوقات عفنة وحيوانات حقيرة لا يصلحن لشيء في هذه الدنيا. والصغير يبكي تاركا نفسه يتدلى في المسير ويسقط إلى الأرض، وتتوقد آثار أصابع أمي على خديه أشد احمراراً من سفعة الشمس.

ولا تجد أمي مفاتيح الغرفة فتقلِب حقيبة يدها بينا أبي يتقزز من محفظتها الزنخة ونقودها المتقبّضة دوماً ومشطها الدبق ومناديلها الورقية المبللة على الدوام.

هاهي المفاتيح أخيراً في جيب سترة أبي، وتندى عينا أمي فتنحني جاهشة بالبكاء.

ويتذبذب الضوء، ويعصى الباب، ويعلق المصعد. وينسى أبي

الطفل في المصعد، وتهوي أمي بكلتا يديها على باب الغرفة.

وفي العصر تحين قيلولة الظهيرة.

يتعرّق أبي ويشخر مستلقياً على بطنه، دافناً وجهه، ملطّخاً الوسادة باللعاب في الحلم. والصغير يجرّ الغطاء مخبّطاً بقدميه، مقطّباً جبينه، مردداً في الحلم قصيدة حفل الختام في روضة الأطفال عن ظهر قلب. أما أمي فترقد مستيقظة هامدة في شراشف السرير رديئة الغسل، تحت سقف الغرفة رديء التبييض، خلف زجاج الشباك رديء الغسل. وعلى الكرسي تقبع حياكتها.

تحيك أمي كمّاً، فتحيك ظهراً، فتحيك قبّة، فتحيك عروة في القبة.

وتكتب أمي بطاقة بريدية: هنا يُرى الفندق الذي نمكث فيه. وقد علّمتُ نافذتنا بصليب صغير. أما الصليب الآخر ففي الأسفل على الرمل يبيّن الموضع الذي نتشمّس فيه دائماً.

ونحن ننطلق منذ الصباح الباكر كي لا يسبقنا أحد، وحتى لا يحجز المكان أحدٌ غيرنا.

كناسو الشوارع

المدينة تنضح فراغاً.

وتمرّ سيارة على عيني بأنوارها.

ويلعن السائق لأني لا أرى في الظلام.

كنّاسو الشوارع اليوم في الخدمة.

وهم يكنسون المصابيح، ويكنسون الشوارع من المدينة، ويكنسون العيش من البيوت، ويكنسون الأفكار من رأسي، ويكنسونني من ساق إلى أخرى، ويكنسون الخطوات من مشيي.

ويرسل كناسو الشوارع مكانسهم في إثري.. مكانسهم الهزيلة المنطنطة. ويفارق الحذاء بدني مطقطقاً.

وأسير خلف نفسي، وأسقط من نفسي، من على حافة تصوراتي.

وبجانبي تنبح الحديقة. وألبومات تلتهم القبل التي بقيت على المقاعد. وألبومات لا تلحظني. وفي الغيضة ترتع الأحلام المتهالكة.

وتكنس المكانس ظهري لأني أفرط في الاتكاء على الليل.

ويكنس كناسو الشوارع النجوم إلى كومة ثم إلى مجارفهم ويفرغونها في القناة.

وينادي كناس على آخر بشيء، والآخر على آخر، وهو بدوره على آخر.

والآن يختلط حديث جميع كناسي الشوارع. وأسير عبر صيحاتهم، عبر زَبَد نداءاتهم، وأتكسر، وأهوي في عمق المعاني.

وأوسّع خطاي، وأقتلع ساقي في مسيري.

الطريق كُنست من موضعها.

وتنهال المكانس علي.

ويتقلب كل شيء.

وتعبر المدينة الحقل تائهة، إلى مكان ما.

القبوع في الوحدة السكنية.. القبوع على الحجر المربع والإنصات إلى تأجج الريح في الأبواب.. والإصغاء، فقط لأن الأبواب لا تنغلق.

والظن دوماً أن أحداً ما سيأتي، ثم هو المساء والوقت قد تأخر جداً لهذه الزيارة.

والنظر دوماً كيف تتفلطح الستارة، كما لو أن كرة هائلة تلج الغرفة.

وفي المزهريات تنتصب الزهور في باقات عظيمة هي من عظمتها أيكة ليس إلا، جميلة مزعزعة، كما لو كانت هذه حياة.

والكد الذي نلاقيه في هذه الحياة.

والتسلق على الزجاجات القائمة منذ أمس على السجادة. وباب الصندوق مفتوح عن آخره، وكما في مدفن تقبع فيه الثياب.. خالية كأن صاحبها لا وجود له.

والخريف للكلاب في الحديقة، للأعراس المتأخرة في حدائق الصيف في تشرين الثاني، بمال مستدان، وأزهارٍ كبيرة حمراء كالنار، ونكّاشاتِ الأسنان في حبات الزيتون.

وتعجّ في هذه الربوع عرائسَ بسيارات مستعارة، وتعج المدينة بمصورين بقلنسوات مضلعة. وخلف فساتين العرائس ينقطع الفيلم.

أيتها الفتاة المسكينة المتقبّضة، إلى أين تمضين في هذا الصباح الباكر على كل هذا الإسفلت؟ طوال سنوات عبر الحديقة السوداء.

عندما قلتِ سيأتي الصيف لم تفكري بالصيف. وما الذي تقولينه الآن عن الخريف، وكأن هذه المدينة ليست من الحجارة، وكأن ورقة شجر قد ذبلت عليها يوماً.

خلّانك يرِف الظل على شعورهم رائين عليك الحزن، آلفين ذلك، مسلّمين به.

ها أنت ذا. وما الذي يمكن فعله، حين لا يهم عمَّ يكون الكلام، حين يكون الكلام عن الخسارة؟! وما الذي يساعد، حين يساعد الخوف في كؤوس الخمر على الخوف وحين تصغر الزجاجة وتصغر؟!

وحين يدوّي الضحك، حين يتلوّون ضحكاً، حين يقتلهم الضحك، ما الذي يساعد حينها؟!

بيد أننا ما زلنا شباباً.

وها هو ثانية مستبد يسقط، وها هي ثانية المافيا تقتل قتيلاً، وها هو إرهابي يرقد في سرير الموت في إيطاليا.

ليس لك أيتها الفتاة أن تقابلي خوفك بالشرب. إنك تحتسين من هذه الكأس كجميع النساء اللواتي لا حياة لهن، اللواتي ضاق كل شيء بهن، وضِقن بأنفسهن.

سوف تشقين أيتها الفتاة، كذا يقول خلانك.

إنه مجدب في عينيك، شعورك مجدب ذاوٍ. يا حسرة عليك أيتها

لريشارد

يوم العمل

الساعة.. الخامسة والنصف صباحاً. يرنّ المنبه.

أستيقظ فأخلع ثوبي، وأضعه على الوسادة، وأرتدي بجامتي، وأذهب إلى المطبخ، وأدخل حوض الاستحمام، وأتناول المنشفة، فأغسل بها وجهي، وأتناول المشط، فأجفف نفسي به، وأتناول فرشاة الأسنان، فأمشط شعري بها، وأتناول ليفة الحمام، فأنظّف بها أسناني. ثم أذهب إلى الحمام، فآكل شريحة من الشاي وأشرب كوباً من الخبز.

وأضع عني ساعة اليد والخواتم.

وأخلع حذائي.

وأذهب إلى بيت الدرج، ثم أفتح باب الشقة.

وأنتقل بالمصعد من الطابق الخامس إلى الطابق الأول.

ثم أصعد تسع درجات لأصير على الشارع.

وفي البقالة أشتري جريدة، ثم أسير حتى الموقف وأشتري كعكاً هلالياً، ثم وقد بلغتُ كشك الجرائد أركب الترام.

فأترجّل في الموقف الثالث قبل الركوب.

وأردّ التحية على البوّاب، ثم يحيّي البواب مردفاً: إنه يوم الاثنين من جديد، وها قد انقضى من جديد أسبوع آخر.

وأدخل المكتب، فأقول إلى اللقاء، وأعلّق معطفي على المكتب، وأجلس على علاقة الثياب لأشرع بالعمل. وأعمل ثماني ساعات.

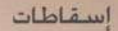
نبذة عن المؤلفة:

ولدت الكاتبة هيرتا موللر في عام 1953 في نيتشكيدورف من رومانيا. تعيش منذ عام 1987 في برلين. حازت هيرتا موللر على أهم الجوائز الأدبية العالمية وآخرها جائزة نوبل عام 2009. عن روايتها «أرجوحة النفس». تكتب هيرتا موللر القصة القصيرة والرواية والشعر وقامت بالترجمة أيضاً. هي عضو في الأكاديمية الألمانية للغة والشعر. صدر لها بالعربية عن مشروع «كلمة» للترجمة: «أرجوحة النفس». و«ما الإنسان سوى دراج كبير في هذه الدنيا». و«كان الثعلب يومها هو الصياد».

نبذة عن المترجم:

من مواليد عام 1982 في مدينة الحسكة في سورية. أنهى تعليمه الثانوي، ثم التحق بجامعة دمشق طالباً في كلية الآداب والعلوم الإنسانية وتخرج عام 2004 بإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها. يتابع حالياً الدراسات العليا بألمانيا في كلية علوم الترجمة واللغة والثقافة في مدينة غرمرسهايم الألمانية التابعة لجامعة يوهانس غوتنبيرغ - ماينتش.





هذا هو الكتاب الذي نالت به الكاتبة هيرتا موللر شهرتها الواسعة، والذي نشر لأول مرة في عام 1982 في بوخارست، حينما كانت الكاتبة ما زالت تعيش في رومانيا.
تصف هيرتا موللر التي حازت على جائزة نوبل للآداب، غرابة الحالة اليومية بأسلوب يقرب الغريب من القارئ ولا ينزع عنه هوية الغرابة، تصف الطبيعة والخوف والحقد والتسامح المفقود والسكون المميت، بقالب يدخل الأمل إلى نفس القارئ بالرغم من الرماديّة.
ينشر الكتاب بهذه الصيغة المكتملة لأول مرة باللغة الألمانية في عام 2010.
تقول الكاتبة: «الساعة: الخامسة والنصف صباحاً. يرنّ المنبه. أستيقظ فأخلع ثوبي، وأضعه على الوسادة، وأرتدي بجامتي، وأذهب إلى المطبخ، وأدخل حوض الاستحمام، وأتناول المنشفة، فأغسل بها وجهي، وأتناول المشط، فأجفف نفسي به، وأتناول فرشاة الأسنان، فأمشط شعري بها، وأتناول ليفة الحمام، فأنظّف بها أسناني. ثم أذهب إلى الحمام، فآكل شريحة من الشاي وأشرب كوباً من الخبز. (...). وأخلع حذائي، وأذهب إلى بيت الدرج، ثم أفتح باب الشقة. (...) ثم أصعد تسع درجات لأصير على الشارع. وفي البقالة أشتري جريدة، ثم أسير حتى الموقف وأشتري كعكاً هلالياً، ثم وقد بلغتُ كشك الجرائد أركب الترام. (...) فأترجّل في الموقف الثالث قبل الركوب. وأردّ التحية على البوّاب، ثم يحيّي البواب مردفاً: إنه يوم الاثنين من جديد، وها قد انقضى من جديد أسبوع آخر. وأدخل المكتب، فأقول إلى اللقاء، وأعلّق معطفي على المكتب، وأجلس على علاقة الثياب لأشرع بالعمل، وأعمل ثماني ساعات».
إن عمل هيرتا موللر الإبداعي في الوقت الذي يستوحي به قوته من الوحشية الغريبة، فإنه غني بالجمالية ويبيّن حظوظ القارئ الكبيرة.







